مجموعة قصصية

حكايات الليل وآخره

مرتينا سيف

مقدمة

القارئ العزيز،

كتبت هذه الحكايات في وقتٍ كانت حياتي فيه ليلًا طويلًا لا يقطعه نهار.

كتبتها لتؤنس وحدتي، وأنا أترقب لحظة يشرق فيها فجري.

لا أستطيع أن أعدك بفصاحة أسلوب، ولا بأحداثٍ مشوّقة تلهث وراءها الصفحات.

كل ما أستطيع أن أعدك به هو شيء من الأَنس بين هذه السطور،

فإن كنت مثلي تبحث عن الأنس، منتظرًا قدوم النهار...

فأهلًا بك هنا.

إهداء

لأني كائن لا يستطيع أن يتقدّم خطوة دون دعم،

أهدي باكورة أعمالي إلى أصدقائي الذين لم يبخلوا عليّ بالوقت والاهتمام،

فقرأوا قصصي بعينٍ محبة، وقدموا ملاحظاتهم وتعليقاتهم،

ولولاهم ما كنت كتبت حرفًا واحدًا.

أولًا، إلى صديقتي كاترين بولس، التي كانت أول من اقترح عليّ أن أكتب قصة لتؤنس وحدتي.

وثانيًا، إلى جميع أحبّتي الذين داوموا على القراءة، ومنحوني أثمن ما يمكن أن يمنحه إنسان لإنسان: الوقت.

مارتينا ثروت، دولاجي مجدي، هناء حامد، عبير خالد، صابرين ياسين، لوسيان هاني، فاطمة الزهراء سمير، سلمى حامد، أسماء فتحي، أمجد محروس، مسك حامد، مريم رأفت، أميرة إبراهيم، آية خالد، أسماء علي، علياء سعد الدين، رضوى حمدي، شروق الصواف، ألفت صبحي، مريم صبحي، شيماء إسماعيل.

حكاية الأولى

قصة " العجوز ولاريسا"

وضع الجريدة بجانبه، وتحسّس من حوله أثر نظارته الطبية كي يتمكّن من قراءة الخبر المكتوب. لكن حظّه العاثر حال دون أن يعثر عليها. قرّب الجريدة من عينيه، دقّق النظر جيّدًا، علّه يتعرّف على هوية صاحبة الصورة التي يتحدث عنها الخبر.. لم يعرف سوى أنها راقصة، تبدو كذلك من وقفتها. أمّا ما كُتب عنها فلم يُوفّق في قراءته. عندها أدرك أنه في حاجة ماسّة إلى نظارته الطبية. صاح مناديًا، لعلّ أحدًا يسمعه من خارج الغرفة ويأتيه بها.

وعلى الرغم من ضعف سمعه، إلا أنّه استشعر جلبة قادمة من الصالة، تُحدّثه بأن الوضع ليس على ما يُرام، وأن أفراد أسرته قد أصابهم مكروه ما.. لكن كعادته، لن يُخبروه بالحقيقة، سيكتفون بطمأنته كاذبين، معتبرين أن رهافة حسّه لا تحتمل الهموم.

لقد تجاوزتُ الثمانين من عمري. صرتُ غير قادر حتى على الانتقال من مكاني إلى آخر دون مساعدة. أصبحت زوجتي ـ وهي تصغرني بعشرين عامًا ـ هي من تدير أمور البيت، وتحلّ جميع المشكلات بعيدًا عني. تراها تفعل ذلك رأفةً بعجوز لا يحتمل من الأنباء إلا ما كان سارًّا، وما عدا ذلك فهي كفيلة به. حتى الأولاد اعتادوا الأمر؛ فأي مشكلة تحدث يذهبون إليها، وقد اعتادوا ذلك منذ كانوا أطفالًا.

استمررتُ في النداء، علّ أحدهم يجيب. كنت أعلم أنهم دائمًا ما يتعازمون فيما بينهم حتى يستقروا على مَن يأتي ليُلبّي احتياجات العجوز الجالس بغرفته، وكأنها مهمّة ثقيلة على نفوسهم.

رأيت عبر الباب ابنتي الوسطى منال. وددتُ أن أناديها لتأتي بالنظارة، لكني لمحتها تذهب وتجيء ملوّحة بيديها في عصبية، كأنها تتشاجر عبر الهاتف ـ كعادتها ـ مع زوجها علاء، ذلك الشاب الذي حذّرناها منه لكنها أصرت على الزواج به، وها هي الآن تتحمّل النتائج.

أمام عيني تتمشّى منال والهاتف بيدها اليمنى، بينما تحمل رضيعها على يدها اليسرى. يحاول طفلها ذو الأربع سنوات التعلّق برجلَيها ليصل إليها. أدركت استحالة أن تلبّي ندائي وسط كل هذا. ثم ابتعدت من أمام الباب، لتكمل شجارها في مكان آخر.

كررتُ ندائي في عصبية، لعل أحدهم يأتي. وأخيرًا دخلت سوزان، زوجة ابني الأكبر أمجد. فتاة راقية ومهذّبة، وهي بحق نعمة الكنة. دخلت سوزان وأنارت الضوء، ثم بحثت عن النظارة حتى وجدتها وأعطتني إياها. وحين نظرت إلى وجهها، رأيت آثار دموعٍ على محيّاها الرقيق. سألتها عن السبب، فاكتفت بابتسامة زائفة قائلة: "لا شيء". كنت أعلم أنّ هناك ما يُخفي، لكن كعادتها لن تخبرني، فقط ستوصيني أن أعتني بصحتي ولا أقلق.

أخذت النظارة، ونظرت إلى الجريدة. حاولت قراءة أول اسم بصعوبة.. "لا..ري..سا.. لاريسا".

****

لاريسا.. لاريسا..

أنتِ هنا.. أنتِ هنا يا لاريسا!

نظرتُ فجأة فوجدتها أمامي، تلك الفتاة الإيطالية الجميلة التي عشقتها وأنا في العشرين من عمري، وكانت هي تصغرني بعامٍ ونصف. جميلة ورقيقة، وجهها ذو ملامح هادئة، ابتسامة عذبة، عيون ناعسة، أنف مدبّب، وقوام نحيل ممشوق تهوى الرقص به. كانت تحلم أن تصبح راقصة عالمية. التحقت بإحدى فرق الرقص، وكان ذلك سبب فراقنا. كانت تريد أن تحترف الرقص.

جلست أمامي مرتدية فستانًا بنفسجيًّا قصيرًا، مُزركشًا بوردة كبيرة على الصدر، ينتمي إلى موضة الأربعينات الجميلة؛ حين كانت المرأة امرأة بحق، ترتدي ما يُبرز أنوثتها.. لا كما ترتدي ابنتي وبنات جيلها اليوم من سراويل يشابهن بها الرجال.

تفرّستُ في لاريسا بحنين جارف لها ولأيامي معها، وشعرتُ أني عدتُ ابن العشرين كما كنت حين أحببتها.

- **وحشتيني يا لاريسا.**

ابتسمت برقة، ونظرت إليّ وقالت بلهجتها المصرية "الرايقة":

- **وإنت كمان يا محمود.**

ثم حوّلت نظرها إلى أرجاء الغرفة، فتوقفت عيناها عند صورة زفافي أنا وسوسن. احمرّ وجه لاريسا بحُمرة الغضب. كنت أعرفها؛ غضوبة يسهل استفزازها.

- **إنت اتجوزت عليّا يا محمود!!!**
- **اتجوز عليكي إيه؟! هو أنا اتجوزتك أصلًا؟ إنتِ مشيتي، وما اتجوزناش.**
- **مش بسبب أمك العقربة؟**
- **لا.. بسبب حبك للرقص.**
- **وهتفضل تكره الرقص طول عمرك، بس عشان إنت ما بتعرفش ترقص!**

شدّتني من يدي كي أرقص معها. وفجأة شعرت بجسدي العليل الثقيل وقد صار خفيفًا كالرِّيشة. لم أعد الرجل الهرِم، بل ذلك الشاب الذي أحب لاريسا.

بدأت تعلّمني خطوات رقصة البطريق، لكني كعادتي أخطئ. وفجأة سمعتُ صوت ارتطام شيء بالأرض. لم أدرِ ما الذي حدث. حاولت أن أرى ما كُسر، لكن ضعف نظري خذلني.

بعد قليل فُتح الباب. دخلت حفيدتي لارا، ذات التسع سنوات، ونظرت إليّ بلوم قائلة:

- **الحقي يا ماما جدو كسر الفازة**

ثم جاء صوت أمها من بعيد يحذّرها من الاقتراب من الزجاج المكسور حتى تأتي هي وتُنظّفه، فخرجت الصغيرة.

شعرتُ بالخجل من نفسي واحمرّت عيناي. وما إن خرجت حفيدتي حتى ظهرت لاريسا من جديد، جلست قبالتي على طرف السرير، تنظر إلى وجهي بتمعّن.

- **مالك يا محمود.. إنت بتعيّط؟!**

أجبتها بصوت متهدّج:

- **أنا حاسس إني لوحدي يا لاريسا.. حاسس إن وجودي تقيل على الكل، حتى على أولادي وأحفادي.**

انحنيت وبكيت على صدرها حتى هدأت تمامًا، ثم فاجأتني بسؤالها:

- **أنا أحلى ولا مراتك؟**
- **مراتي طيبة، بنت أصول، واستحملتني.. لكن ما عندهاش صدر حلو زيك.**

ابتسمت لاريسا بدلال وقد أرضى غرورها جوابي:

- **والله؟**
- **والله، ده أنا لسه معيط عليه من شوية.**

فُتح الباب فجأة، دخلت سوزان، التقطت بقايا الزجاج المكسور، وأخبرتني أنها ستغادر. جاءت بحفيدتي لارا كي أودّعها. نظرت إلى الصغيرة بأسى:

- **ما تخليكي قاعدة معايا.. أجيبلك حاجات حلوة.**
- **مش هينفع يا جدو.. لازم نمشي عشان نلحق.**
- **تلحقوا إيه؟ وماما كانت بتعيّط ليه؟**
- **أصل يا جدو.. بابا عيّان وراح المستشفى و...**
- **لارا! تعالى هنا.. يلا نمشي.**

جاء صوت سوزان عاليًا من خارج الغرفة. نزعت الصغيرة نفسها من حضني سريعًا مثلما أمرتها أمها، وتركتني وحيدًا من جديد.

وحينها ظهرت لاريسا مرة أخرى، بنفس ابتسامتها الساحرة:

- **مالك يا محمود؟**
- **ابني في المستشفى.**
- **ليه راح المستشفى؟**
- **ماعرفش.. محدّش قالي.**
- **بسيطة.. تعالى نطلع الصالة ونعرف.**

ثم أخذتني لاريسا من يدي وخرجنا من الغرفة بخفة. ذهبت إلى الغرفة المجاورة ووجدت زوجتي مع ابنتي الوسطى منال وأولادها وابنتي الصغرى هايدي مجتمعين.

سألت هايدي:

- **كدة يبقي فاضل كام على 600 ألف؟**

أجابت سوسن زوجتي:

400 ألف عشان سوزان قالت هتبيع العربية.

علقت منال:

- **أنا لو كنت أقدر أساعد ماكنتش اتأخر عن أخويا، بس انتوا عارفين ظروفي وظروف جوزي.**

هايدي: **تفتكري يا ماما هنلحق نلاقي المتبرع؟**

سوسن: **إن شاء الله هنلاقي.. لو كان ينفع كنت أديتله أنا كليتي.**

ثم انهالت في العياط. خرج محمود ولاريسا من الغرفة وتركوا النسوة الثلاث يكملن حديثهن.

- **أنا مش فاهم حاجة يا لاريسا.. هما بيقولوا إيه؟**

أجابت لاريسا بغضب:

- **عارف يا محمود.. أنا لو ماكنتش سيبتك زمان عشان أمك العقربة.. كنت هسيبك عشان غباءك ده. ابنك عيان في المستشفى عشان محتاج كلية ودي فلوس بيجموعها للمتبرع.**

نكس محمود رأسه ثم عاد إلى غرفته، وجد نفسه ينظر طويلاً إلى صور أمجد، أول أبناءه. لماذا هو هنا؟ لماذا ابنه هناك في المستشفى؟ لماذا مازال على قيد الحياة وهو غير قادر عليها؟ وابنه الشاب في المستشفى لا يقوى على القيام؟ ابنته الصغيرة لازالت تحتاج أب، وزوجته مازالت في حاجة إلى زوج، أما هو فلا حاجة لزوجته وأبنائه إليه، وقد أصبح عبء على الأسرة بكاملها.

هدأت الأصوات خارج الغرفة، علم أن أولاده انصرفوا. حاول الخروج من الغرفة بمساعدة عجازه، وبصعوبة خرج إلى صالة منزله، وذهب ليجلس بجانب زوجته.

- **خالص مشيوا؟**
- **أيوة، مشيوا.**
- **وهايدي؟!**
- **راحت الجامعة.**
- **طب تعالي اقعدي جنبي شوية.**

حدثته سوسن وهي تهم بالقيام حاملة عدة أطباق معها، ذاهبة إلى المطبخ:

- **أنت فاضي ورايق.. والمواعين دي مين يغسلها؟ والغداء مين يحضره**
- **سمع أصوات غسل الأطباق تأتي من المطبخ.**

- **تعالي بس.. حابب أتكلم معاكي شوية، وبعدين اعملي اللي انت عايزة.**

أتت إليه من المطبخ.. سوسن زوجته. بجسدها الممتلئ ظل يقارن جسد زوجته الآن بوقت زواجهما، ونظر إلى وجهها، تبدو ملامحها تغيرت كثيراً عما كانت عليه قديماً. لم تصبح ابنة عشرين عام التي تزوجها.. انقضت أربعون عام سريعاً.

- **مالك.. ما تتكلم.. ما قعدني جنبك كدة وخلاص؟**

كانت سوسن تتحدث، لكن الصوت كان صوت لاريسا.. اختلط عليه الأمر. أهي زوجته سوسن أم حبيبته لاريسا؟ لكنه قرر أن يخاطب زوجته:

- **فاكرة لما اتجوزتك زمان.. قالوا إنك صغيرة أوي عليا.. فرق عشرين سنة.. وقالولي أربيكي على إيدي.. لكن اللي حصل إنك انتي اللي ربتيني على إيدك.**

أبتسمت سوسن ابتسامة ساخرة:

- **هو أنا كنت بشوفك عشان أربيك؟ كنت تحب دايماً أطلعك بالعافية من أوضتك وكتبك وأعرفك الأولاد عايزين محتاجين إيه.**
- **لولا إنك عملتي كدة.. ماكنتش هتربى.. أنا اتربيت مع العيال.. أنت ربتيني في الأربعين سنة اللي فاتوا دول.. عارفة من حظي الحلو أني اتقدمتلك ومن حظك الوحش إنك قبلتي.**

إبتسمت سوسن، هذه المرة من قلبها:

- **بس انت اتغيرت يا سوسن.. مابقيتش تقوليلي على احتياجات الأولاد زي زمان.. بقيتي تنفذي طلبي القديم وتسيبني في حالى في أوضتي.. بقيتي تسيبني كتير.**

قبل أن تجيبه سوسن، وجد محمود يسترسل في الحديث. كانت المرة الأولى التي يتحدث إليها بهذه الحماسة منذ زواجهما:

- **شايفة يا سوسن صورة أمجد ابننا لما اتولد.. فاكرة لما كان بيعيا زمان كنتي بتجي وتزعقيلي وتقوليلي الواد بيروح مني اتصرف.. فاكرة أمجد لما اتولد.. فاكرة لما عمل عملية الزايدة كنتي قلقانة عليه إزاي.**

شعرت سوسن بغصة في حلقها من كلام زوجها عن أمجد لكنها صمتت.

- **اسمعي يا سوسن، أنا كبرت وما بقى فاضل في عمري كتير.. ماعرفش إذا كانت حتة من جسمي سليمة ولا لا.. تنفع ولا لا.. خديها وحطيها في جسم إبني.. هو محتاجها أكتر مني دلوقتي والحياة محتاجاه أكتر مني.**
- **أنت عايز تدي لابنك كليتك؟ أنت عرفت منين.. أنت سمعتنا؟**
- **أنا تعبان يا سوسن وداخل ارتاح، بس افتكري كلامي.. شيلي الحتة اللي محتاجها ابني من جسمي واديها له لو مالقوش متبرع.**

****

دخلت غرفتي.. وجدت لاريسا نائمة على فراشي. كانت لاريسا صوتاً وصورة هنا.. لم تتداخل معها سوسن مثلما حدث في الصالة. أيقظتها، وجدتها تبكي:

- **بتعيطي ليه يا لاريسا؟**
- **عشان انت نسيتني يا محمود.. عشان عيشت مع سوسن أربعين سنة وعيشت معايا أنا سنة ونص بس.**

- **ماحصلش، أنا مانسيتكيش.. طيب حتى أسأل حسين.**
- **مين حسين؟**
- **صاحبي اللي كنت بقعد معاه على القهوة وكنت على طول بحكيله عنك.**
- **بس انت ماتفكرتنيش غير النهاردة.**
- **مش حقيقي.. انت كنتي دايماً في بالي.. لما طلعت معاش وولادي اتجوزوا ومشيوا ودنيتي فضيت كنت دايماً بفتكرك.. أنا صحيح عيشت معاكي في الواقع سنة ونص بس، لكن الذكرى الحلوة كل مرة صاحبها يفتكرها كأنه عاشها تاني.. شوفي أنا كام مرة افتكرتك وكام مرة عيشت معاكي.. بس النهاردة أول مرة تجيلي.**
- **جيت عشان وحشتني.. جيت أخدك معايا.**

ثم قامت ورمت نفسها بين أحضانه. مرت ثوانٍ ووجد نفسه ينام مكان لاريسا على السرير. أغمض عينيه، ووجه لاريسا يبتسم أمامه، ثم نام.. نام في هدوء إلى الأبد، وبجانبه الجريدة التي كان يحاول قراءتها، وبها خبر مكتوب عن وفاة الراقصة الإيطالية لاريسا.

الحكاية الثانية:

قصة "رحمة"

وقفت أمام المرآة تتأمل وجهها، تسأل نفسها: أي قناع سترتدي اليوم؟

أهو قناع الفتاة البريئة الساذجة، أم قناع المرأة اللعوب مكتملة الأنوثة؟

أي شخصية ستكون: المُخادعة أم المخدوعة، المُضحية أم الأنانية، المطيعة أم العنيدة؟

في كل الأحوال ستصل إلى هدفها، فلابد أن تقع الضحية لا محالة.

رحمة تعلم جيداً أنها قادرة على الإيقاع بأي رجل؛ فتلك لعبتها المُفضلة.

هي كالحرباء، تتلون شخصيتها لتناسب شخصية كل رجل تريد اصطياده.

فبمجرد أن تنظر في عينيه تدرك ما يحتاج إليه:

إن كان محباً للسيطرة، صارت هي الضعيفة المستسلمة ليبسط نفوذه عليها فيقع في غرامها.

وإن كان خجولاً يفتقر إلى المبادرة، كانت له بمثابة الأم التي تعلمه الغرام.

لهذا ترميه بنظرة إعجاب، لذاك تستفز غروره، ولآخر تبكي بين يديه، أما غيره فتغمره بنظرة دلال.

تتركهم جميعاً معلّقين بها، هائمين في سماء قلبها.

فإذا ملت منهم، تركتهم خلفها جرحى، مكسوري القلوب.

كانت تفعل كل ذلك بشكل شبه تلقائي، يومياً، حتى غدت أنوثتها المُزيفة تعيش على نظرات إعجاب الشباب بها.

****

ارتدت رحمة فستانها الأحمر القصير، وكان الأحمر لونها المفضل.

وضعت زينتها كاملة؛ فهي تعشق تلك اللحظة اليومية أمام المرآة، حين تختار ملابسها بعناية، وتتفنن في وضع مكياجها.

تحكّل جفونها، وتلون شفتيها بقلم الحمرة، وتداعب خصلات شعرها المموج.

ثم تتأمل وجهها ذي الملامح البريئة الرقيقة، ونظرات عينيها الناعسة التي تعرف تماماً متى تستعملها وكيف.

وصلت إلى الحفلة تمشي بخيلاء ودلال، كأن الأرض تفرش تحت قدميها.

قابلها كريم، وكان متلهفاً لرؤيتها.

التقت عيناهما، ورأت ما لا يستطيع أن يخفيه: نظرة شهوة يحاول سترها خلف قناع من العشق الزائف.

لكن على مَن؟ فرحمة قارئة عيون بارعة، تدرك الحقيقة قبل أن ينطق بها لسانه.

****

جلست قبالته. أحست بعينيه تأكلانها، على الرغم من كون كريم بارعًا في إخفاء رغباته. كان يُحدثها بلباقة ورقي حتى يظن من يسمعه أنه مثقف من طراز فريد، وهو لا يرمي سوى إلى اتجاه واحد كانت تعلمه رحمة. من حين إلى آخر كان يلمح لها بتلميحات جريئة. كان ذاك النوع "المثقف" من الضحايا الذي يعرف كيف يغلف شهوته بالثقافة والفن ويخلط النزوات بالجمال، وهو نوعها المفضل، فالإيقاع بهم أصعب من الذئاب الصريحة المباشرة في رغبتها.

والآن سيظن كريم أنه تمكن من الإيقاع بها بعد شهور طويلة من التخطيط للوصول إليها. الآن سيعرض كريم عرضه... الآن لحظة رحمة المفضلة، حينما ينزع كل طرف الأقنعة ويكشر عن وجهه الحقيقي، حينما يكتشف كريم أنه هو فريسة رحمة وليس العكس.

يعرض كريم الذهاب مع رحمة في رحلة بحرية قصيرة على اليخت الخاص به، ويأتي دور رحمة لتلقنه درسًا في الأخلاق مرتدية ثوب الفضيلة، هازئة به، ترمي إليه نظرات الانتصار والشماتة.

لكن كريم كان له رد فعل قوي لم تتوقعه رحمة، فهجم عليها وكاد يمد يده لصفعها. لكن هناك يدًا أخرى منعته من ذلك.

نظرت رحمة فإذا بشاب لا تعرفه، لا تعلم من أين أتى ولا كم وقف، وفي اللحظة المناسبة يمنع كريم من ضربها، ومن ثم يتشاجران معًا.

فرت رحمة هاربة، تاركة الحفلة في تلك اللحظة، لا تفكر سوى بذلك الشاب الذي أنقذها.

****

في اليوم التالي شعرت رحمة برغبة شديدة في معرفة من يكون هذا الشاب. أخرجت هاتفها فوجدت رسالة بها سباب من كريم، فمَسَحت الرسالة وحظرت رقمه. ثم هاتفت نانسي صديقتها تسألها عمّا حدث بعد تركها الحفلة، ومن يكون هذا الشاب، ثم طلبت منها إرسال رابط حسابه الشخصي على فيسبوك.

جلست رحمة تتأمل صفحته الشخصية لتعرف من يكون نادر هذا. يبدو من المنشورات التي يضعها أنه شخصية محبة للأدب والفلسفة، ولكن ليس هذا ما كانت تبحث عنه فقط. ظلت تتصفح حسابه الخاص بحثًا عن ظل علاقة عاطفية هنا أو هناك. لم تجد في البداية ما يشير إلى وجود علاقة ما، لكنها وجدت أنه كان يومًا في علاقة مع فتاة تُدعى سارة، وانفصلا منذ مدة طويلة.

ظلت مترددة برهة، حتى أرسلت له طلب صداقة. وبعد مضي ساعة واحدة جاءها إشعار بقبول طلبها.

****

بعد مرور عدة أيام كانت رحمة تراقب نادر في صمت، ترغب في الحديث إليه لكنها لا تستطيع، حتى أتتها منه رسالة ترحيب وتعارف عادية.

تحدثا قليلًا، ثم أخبرها أنهما تقابلا سابقًا.

سألته:

- **أين؟**

في إحدى الحفلات في منزل كريم. كنتِ صاخبة جدًا، ترقصين وتتحدثين مع الجميع، كنتِ في حالة شبه احتياج. أنا رأيتك حينها لكنك لم تلحظي وجودي.

قالت متفاجئة:

- **آه.. وما طبيعة علاقتك بكريم؟**
- **لسنا أصدقاء مقربين، لكن يجمع بيننا الود.**

تجمدت ملامح رحمة برهة ثم سألته:

- **لماذا تشاجرت مع كريم من أجلي؟**
- **لا أستطيع أن أرى فتاة تُضرب.**

لسبب ما لم تستسغ رحمة تلك الإجابة وشعرت أنها مفتعلة.

سألها:

- **ما بها؟**

أجابته

- **الحقيقة أشعر أنها إجابة مفتعلة.**

فأجابها بسؤال:

- **برأيك يا رحمة، لو أن هناك شخصين: أحدهما يصلي لله، والآخر ينقذ إنسانًا ربما كان بيته يحترق أو ساعد جريحًا ليُنقل إلى المستشفى.. من منهما يكون الأقرب إلى الله في تلك اللحظة؟**

ترددت رحمة دقيقة ثم أجابت:

- **أعتقد أنه الذي يُساعد فعليًا.**

قال:

- **الجميع سوف يقول إن المساعدة الفعلية تنقذ الجسد، أما الصلاة فهي ربما تنقذ نفسًا أو روحًا.**

سألته متضايقة:

- **وما علاقة كل هذا بي؟**

أجابها:

- **أنا أعلم طبيعة علاقتك بكريم. هو صديقي وحدثني بما فعلتِ به، وهو لا يطيق سيرتك على كل حال.**

كتبت رحمة وهي ترتعش:

- **لكنني لم أفعل به شيئًا.**

فأجابها:

- **حسنًا، وأنا أصدقك.**

أنهت معه الحديث وظلت تبكي.

****

بعدها استمرت صداقة رحمة بنادر وتعددت اللقاءات بينهم حتى أنها كانت تدعوه لزيارة منزلها التي تعيش به وحيدة وحكي هو لها عن قصة حبه السابقة مع سارة وكيف انتهت

****

ازدادت قُربًا رحمة من نادر بشكل سريع. في أحد اللقاءات التي جمعتهما في أحد المطاعم وهما يتناولان الطعام، جاءها اتصال هاتفي أزعجها أن تُجيب عليه. لاحظ نادر قلقها لكنه لم يحبذ أن يتدخل في شيء لم تخبره به. بدا عليها الكآبة، ظلت تنظر إلى طبقها دون أن تأكل، وكانت على وشك البكاء. نادر كان يراها لكنه لم يتمكن من فعل شيء حيال حزنها. طلبت منه أن يغادرا المكان، وكعادته أوصلها في سيارته. في الطريق علا نشيج رحمة رغم محاولاتها كتمانه. لم يستطع نادر أن يمنع نفسه من السؤال:

– من الذي اتصل بكِ؟

– إنها ماما.

– هل لديك مشاكل مع أهلك؟ هل تزورينهم يا رحمة؟

لم تُجب، صمتت قليلاً ثم التفتت إليه بصوت مبحوح:

ـ عندما كنت في الجامعة كان هناك شاب يحبني، وأنا أيضاً كنت أحبه، لكننا لم نتزوج.

ـ لماذا؟

ـ أهله رفضوني، لأن والديّ انفصلا منذ كنت طفلة صغيرة.

لم يعرف نادر بماذا يُجيب، لكنه صمت احترامًا لمشاعرها.

في تلك الأثناء، كان هناك صوت داخل رحمة يُحدثها: "لا تفعلي ذلك يا رحمة، لا تفعلي ذلك به. نادر لا يستحق منكِ هذا. أنتِ تعرفين أنه يحب أن يلعب دور المنقذ، لذا تؤدين أمامه دور الضحية. أنتِ تعلمين أن حزنك وغموضك سيجذبه أكثر. يا لكِ من مخادعة! تبكين أمامه فقط، تتذكرين أحزانك حين تكونين برفقته. لماذا لا تسقط دموعك أمام ياسر أو يارا أو نور؟ أليسوا أصدقاؤك أيضاً؟"

استرقت النظر إلى عينيه، فلم تجد نظرة الشهوة التي اعتادتها، لكن نادر... نادر حتى في نظراته بدا مختلفًا. ورحمة كانت خبيرة بقراءة العيون.

كان نادر ينظر إليها ويتساءل: "لماذا تبدو هذه الفتاة وكأنها كتلة من الألم؟ لماذا تهوى أن تعذب نفسها؟ تبحث عما يؤذيها وتتمسك به. لماذا تخشى وتبتعد عن أي شيء قد يمنحها السعادة؟ لماذا تسمح لهؤلاء الشباب أن يستغلوها؟ هل هي غبية لدرجة أنها تظن نفسها المخادعة بينما هي المخدوعة؟ يا الله، كم هي مغفلة هذه الفتاة!"

وصلا إلى منزل رحمة، ودعها نادر، وأمام دارها ألقى عليها نظرة أخيرة، وهو يقول في داخله: "كم هي مغلفة... وكم هي مسكينة."

تمعنت رحمة طويلًا في نظرته تلك. جلست تفكر في بيتها: ما نوع هذه النظرة؟ ليست شهوة، وليست حبًا. فهل هي شفقة؟! لكنها كانت مطمئنة أن نادر لم يقع في غرامها، لأن الحب عندها يقترن بالفراق. من يحبها اليوم سيكرهها غدًا. من يراها ملاكًا اليوم سيشيطنها غدًا. هذا ما يفعله الحب دائمًا... أو هكذا كانت رحمة تظن. على الأقل نادر لم يفقد عقله، فهي تعلم أن كل فتاة تحب أن تسلب حبيبها عقله، لكنها لم تكن تدري كم هو مخيف أن تعيش مع من فقد عقله.

****

ظلت أمها تتصل بها، لكن رحمة لم ترغب في الإجابة، فهي لم تغفر لهم ما فعلوه بها عندما كانت طفلة. وأخيرًا أجابت؛ لتسمع أمها تخبرها أن والدها مريض بين الحياة والموت، بل حملتها مسؤولية مرضه، لأنه ـ بحسب أمها ـ بسبب كلامها الأخير واتهاماتها لهم.

كلمات الأم جعلت رحمة تكاد تجن. هل نسي والداها ما فعلاه بها؟! إنهما دائمًا ما يستخدمان الذنب لإعادتها إلى قبضتهما كلما حاولت التحرر منهما. يربطان سعادتهما بآلامها. هي لم ولن تغفر لهما.

أخرجت هاتفها، وأرسلت رسالة صوتية لأمها كي لا تضطر إلى سماع صوتها. ظلت تصرخ بعصبية، كمن أصابته حمى شديدة، ثم تبكي وتركُل الأرض بقدميها اعتراضًا أن يكون هذان

والداها. أغلقت الهاتف كي لا يصلها منهما شيء. كانت خائفة مما سيحدث حين يسمعان الرسالة، فقررت تحطيم الهاتف. لكنها لم تكتفِ بذلك... قررت أن تسبق تهديداتهما، فهما دائمًا يقولان: "عندما يموت أحدنا ستندمين باقي عمرك." إذاً، فتمت هي أولاً، وليُصبِح الندم نصيبهما ما تبقى لهما من حياة.

نظرت حولها في المنزل. ماذا تفعل؟ ذهبت إلى المطبخ، أخرجت سكينًا، قررت أن تغرزها في صدرها وتترك الدم ينزف حتى تموت. لكنها كانت أجبن من ذلك. اختارت طريقة "ألطف": ستمتنع عن الطعام والشراب حتى تُصاب بهبوط وتموت.

ظلّت على تلك الحال يومًا كاملًا، وفي اليوم التالي بدأ الجوع ينهش معدتها، لكنها ذكّرت نفسها بما قد يحدث لو عاشت بعد رسالتها القاسية إلى أمها. أحضرت وشاحًا وغطّت به فمها. استمر الحال هكذا لليوم الثالث.

في تلك الأثناء، انتاب نادر قلق شديد. لم يكن من عادات رحمة أن تختفي هكذا، لا تتصل، لا تذهب إلى عملها، وهاتفها مغلق. لم يجد أمامه سوى أن يذهب بنفسه إلى منزلها. الأمن يعرفه، فقد اعتاد أن يرافق رحمة إلى بيتها.

وقف أمام شقتها وقرع الباب. كان حدسه يخبره أنها بالداخل، فاشتد قرعه وخفق قلبه.

سمعت رحمة الطرقات، وعرفت أنه نادر... صاحب "النظرات النادرة". لن يأتي غيره إليها. ازدادت الطرقات، وكانت تود أن تفتح له الباب، لكنها لم تعد قادرة على الوقوف أو حتى الكلام بعد صيامها القاسي. تذكرت عندئذٍ نظراته لها: لم تكن شهوة، ولا حبًا جارفًا، ولا شفقة... بل كانت نظرة رحمة.

حاولت أن تقوي نفسها وتقوم لتفتح له. "افتحي الباب للرحمة يا رحمة." كانت تقول لنفسها. الرحمة بالنسبة لها في تلك اللحظة كانت فوق الحب: أن يكون أحدهم رحيمًا بك، أن يترأف بك... ذاك أفضل ما قد يفعله إنسان لإنسان. لكن رحمة لم تستطع أن تقوم.

ليت "الرحمة" تستطيع أن تكسر الباب وتدخل لتنقذها. لكن الرحمة لا تفعل ذلك، هي فقط تقرع الباب... ويجب أن نفتح نحن لها.

توقف الطرق، يبدو أن نادر قد غادر. ظلّت رحمة ممددة على الأرض، في انتظار أن تعود "الرحمة" لتقرع بابها مجددًا، أو تكسره، أو تنقذها. كانت تمني نفسها بأن باب الرحمة سيُقرع مرة أخرى... لينقذها.

الحكاية الثالثة:

قصة " حالة حب "

استيقظت رانيا الساعة السادسة والنصف صباحًا. كان يرقد بجوارها زوجها أسامة ما زال نائمًا. مالت ناحيته وظلت تنظر إلى وجهه النائم، تتأمل قسماته جيدًا وكأنها تريد أن تنحفر في قلبها.

استيقظ أسامة من غفوته، فوجد وجه زوجته أمامه، عيناها تحدّقان فيه. فزع من المنظر وصرخ قائلًا:

– "إيه يا رانيا! خوّفتيني يا شيخة... مبحلقة فيا كده ليه؟"

– "أعمل إيه... بتوحشني! بحب أتفرج عليك وإنت نايم."

– "لا والله! اللي أعرفه إن الزوجة اللي بتحب جوزها بجد ما تقعدش تبحلق فيه كده... تقوم قابلاه عاملة له الفطار ومكوية له هدومه. عملتيلي أكل؟"

كانت ردّة فعله كفيلة أن تحبط رانيا وتزيد من معاناتها التي لا يفهمها أسامة.

أسامة ورانيا قد تزوجا منذ شهرين فقط. لم تكن فترة الخطوبة طويلة، فقد أعجب أسامة بجمال رانيا وسارع بخطبتها. كانت رانيا فتاة جميلة، مهذبة وذات خلق، ولم يكن يطلب أكثر من ذلك. اعتقد أن حياتهما بعد الزواج ستمتلئ بالهناء والسعادة، لكنه فوجئ بتعقيدات رانيا التي لم يفهمها؛ فهو كائن بسيط جدًا.

كان يتخيل أنه عندما يستيقظ سيجد زوجته الجميلة قد أعدت له الفطور، يتناولانه معًا وهي مبتسمة برقة. ثم يعود إليها في المساء بعد يوم عمل طويل وشاق، ليجدها قد أعدت له العشاء بنفس الابتسامة الرقيقة، ممتنة لجهده في توفير احتياجات المنزل. ثم يجلس قليلًا يشاهد التلفاز أو يتصفح هاتفه، فبعد يوم عمل يستحق بعض الترفيه، قبل أن يمارسا الحب ويناما معًا ليبدأ يوم جديد.

لكن جميلته رانيا لم تكن كما توقع. كان يراها تتألم من أمر ما. بدا له أنها تتألم حقًا، وكان هو يتألم لأجلها، لكنه لا يعرف السبب. فهي تملك كل ما تحتاجه من لوازم المنزل والثياب، وهو لم يبخل عليها بشيء. ومع ذلك، كانت تشتكي له من فراغ بروحها، ومن غيابه عنها، ومن أنه لا يراها.

كانت كلماتها تبدو له غير مفهومة: ما هو هذا الفراغ الذي تعانيه وهي تملك أحدث وسائل الترفيه؟ كيف تغيب عنه وهو يعود إلى المنزل كل مساء؟ كيف لا يراها وهي واقفة أمامه؟! بدلًا من تلك الابتسامة التي كان يتوقعها، كان يرى دموعها، وبدلًا من الامتنان نحوه، كان يواجه غضبًا وإحباطًا. حقًا... "لا أحد يستطيع فهم النساء."

على الجانب الآخر، كانت رانيا محبطة من حياتها الزوجية القصيرة؛ إذ لم تكن كما حلمت. رانيا فتاة رومانسية للغاية، تعشق قراءة الأشعار والروايات العاطفية، وظلت طيلة حياتها في

انتظار فارس أحلامها. كانت فترة خطبتها القصيرة أسعد فترة في حياتها، عندما ظهر هذا الفارس الذي طالما حلمت به.

كانت ترسم في ذهنها صورة لحياة مليئة بالحب والهيام داخل عش الزوجية، لكنها بعد الزواج وجدت أحلامها تتحطم. أصبحت تقضي نهارها كله في أعمال المنزل، وعندما يعود زوجها لا يرغب سوى في طعام ساخن، ثم يتركها ليتابع التلفاز. شعرت أنها مجرد قطعة أثاث في البيت.

أصبح كل حديثهما لا يتعدى قائمة طويلة من الطلبات يمليها عليها في الصباح ليجدها منفذة في المساء. كان يسألها عن الطعام الذي طبخته، وأين وضعت ثيابه التي سيذهب بها إلى عمله. أما هي... ماذا تشعر، وماذا تريد، فذاك آخر ما كان يهمه.

لم يكن هذا حلمها عن الزواج. فقد شعرت أنها تحولت إلى مجرد "زوجة"، ولم تعد تلك "الحبيبة" التي كانت في فترة الخطوبة. وأصبح أسامة "زوجًا" لا "حبيبًا".

***** *

كان عيد ميلاد رانيا يقترب، وكانت متحمسة جدًا لتلك المناسبة التي ستقضيها مع حبيبها أسامة كزوجين لأول مرة. لكن أسامة فاجأها بخبر سفره يوم عيد ميلادها، سفرية هامة تخص عمله. ضاق صدر رانيا عند سماعها الخبر، وزاد من ضيقها أنه لم يجد سببًا لانزعاجها كل هذا الانزعاج.

وقبل أن يغادر، أعطاها هدية عبارة عن خاتم من الألماس. نظرت رانيا إلى الخاتم بحنق، شعرت أنه سلب منها حبيبها وحل محله. الآن أسامة يشعر أنه قد وفاها حقها، فلا أحد يمكنه القول إنه أهملها، إذ ليس من يعطي زوجته هدية ثمينة كهذا الخاتم يُقال عنه زوج مهمل.

لكن رانيا لم تكن تريد الخاتم، بل كانت تريد زوجها، لا خاتمه. وعندما شكت الأمر إلى والدتها وأختها الكبرى، أخبرتاها أن "هذا هو الزواج"، فما يهم هو أن يغطي الزوج نفقات زوجته، وأن هذا هو معيار الحب عند الرجال.

****

بعد مرور عشر سنوات

أصبحت الشكوك تحيط برانيا من كل جانب. مبررات أسامة وأعذاره التي لا تنتهي كانت تزيد من شكوكها فيه. حتى الحقيقة التي تقولها ويعلم قلبها أنها حقيقة، بدت وكأنها تخفي سرًا وراءها.

لم يكن لديها دليل مادي واحد على أن في حياة زوجها امرأة أخرى، لكن حدسها كان متأكدًا أن هناك أخرى. هو معها بجسده وعقله فقط، أما روحه فبعيدة عنها.

ماذا تفعل؟ هل تهدم البيت وتهجره؟ لكن إن فعلت، ماذا عن طفلتيها؟ كان عليها أولًا أن تتأكد. هي بحاجة إلى دليل واحد كي تواجهه... كي تعرف فقط لماذا.

لماذا؟

******

حتى أتاها ذات يوم الدليل.

زوجها لم يكن في سفرية عمل كما أخبرها، وتأكدت بنفسها من مقر عمله. لم يكن أسامة في اليونان كما قال.

- **"أين أسامة يا أدهم؟"**

أدهم، ابن خالتها وصديق أسامة المقرّب، كان يعلم أن رانيا لن تطرح هذا السؤال عبثًا. كانت تدرك أنه لن يشي بصديقه بسهولة، لكنها ألحت عليه، وأخبرته أنها لن تغادر منزله حتى تعرف الحقيقة: أين زوجها بالتحديد؟

فكّر أدهم مليًّا. لم يعد هناك فائدة من الإنكار. عاجلًا أم آجلًا ستكتشف رانيا أن أسامة قد تزوّج عليها أخرى.

****

كانت رانيا تعلم أن هناك أخرى، لكن أن يصير الأمر واقعًا فذلك شيء آخر. قابلت أسامة خارج المنزل، فلم تكن ترغب أن تستمع إحدى ابنتيها إلى ذلك الحديث أو تعرف حقيقة ما حدث بين والديها

بكت رانيا حتى احمرّ وجهها كله. عزّ على أسامة أن يراها بهذا الحال، وطلب منها أن تُخفف من بكائها قليلًا. كان يدرك أن معرفتها بزواجه بأخرى ستوجعها، لكنه لم يتخيّل أن يصل بها الألم إلى هذا الحد. كان في داخله يظن أن هذا اليوم، يوم معرفتها بالحقيقة، سيشفي غليله منها، لكنه فوجئ أن قلبه لا يزال يكره رؤيتها تبكي، وأنه يتألم معها.

والآن جاء السؤال المنتظر: "لماذا؟"

لماذا تزوّج بأخرى؟ لماذا احتاج لامرأة غيرها؟ كان يتمنى أن تسأله لتُخرجه الكلمات التي ظلّ يخفيها.

- **"ليه عملت كده يا أسامة؟ أنا عملتلك إيه عشان تتجوز عليا؟"**
- **"ليه؟ هو إحنا كنا متجوزين أصلًا؟ عشان أكون خاينك؟"**

نظرت إليه رانيا في صدمة، فأكمل:

- **"أنا ماكنتش بالنسبة لك زوج يا رانيا، أنا كنت مجرد حساب بنكي.. ماكينة ATM بتفتكريها لما تحتاجيها وبس. مش إنسان كامل. مجرد واحد بيسدد احتياجاتك إنتي والبنات. حتى صباح الخير ماكنتش تقوليها إلا بثمن!"**

أصابتها كلماته بالذهول. أليس هو من علّمها أن المال هو البديل عنه؟ أليس هو من كان يتركها وحيدة ويضع مكانه الأموال والهدايا؟ أجابته بصوت مبحوح:

- **"عارف كنت بعمل إيه بالفلوس دي؟ كنت بعوض غيابك بياها. لو كنت لاقيك، ماكنتش احتاجتها. ماكنتش بلاقي حضنك، لكن كنت بلاقي مفتاح شاليه جديد. بدل إيديك اللي تطبطب عليا، كنت بتديني مفتاح عربية. دلوقتي جاي تقولي أنا حبيت فلوسك وما حبتكش؟ هو أنا لقيتك أصلا غير في فلوسك؟"**

ردّ أسامة غاضبًا:

- **"أنا كنت بعملك الحاجات دي عشان تحسي بحبي. قُمتِ تحبيها هي وما تحبنيش أنا. فين رانيا اللي أنا حبيتها زمان؟"**

نظرت له بمرارة وقالت:

- **"ودلوقتي بتسأل عن رانيا بتاعة زمان؟"**

لم يعد لاستمرار الحديث بينهما معنى. فقد انكسر شيء بينهما لا يمكن إصلاحه. أسامة لم يستطع أن يغفر لها، وظلّ يراها امرأة وصولية استغلته واستغلت حبه. أما هي فشعرت أنها طُعنت في قلبها من اتهاماته الجارحة. كيف بعد كل ما كان بينهما يراها هكذا؟

لم يكن أمامها سوى أن تعيد له كل ما أخذت منه من هدايا وأموال، وأن تطلب الطلاق لتبدأ من جديد.

الحكاية الرابعة:

قصة " الليلة الأخيرة "

عاد شادي إلى منزله بعد يوم عمل شاق وطويل استمر فيه التصوير لساعات مرهقة. لم يكن يرغب في شيء أكثر من النوم، لكن هاتفه رنّ في ساعة متأخرة. نظر إلى الشاشة فوجد المتصل مجهولًا (Unknown Number).

تردّد قليلًا بين أن يتجاهل الاتصال أو يغلق الهاتف ويخلد للنوم، لكن شيئًا ما بداخله دفعه للإجابة. استمر الهاتف في الرنين، فقرر أن يرد:

- **"ألو.. مين معايا؟"**
- **"أستاذ شادي شوقي.. مش كده؟"**

كان صوت فتاة في العشرينات من عمرها.

- **"أيوة أنا.. جبتي رقمي منين؟"**
- **"جبته وخلاص.**
- **"امممم.."**
- **"دي حاجة سهلة.. إنت شخصية معروفة يا أستاذ شادي."**

تنهد قائلًا:

- **"طب تسمحي نأجل كلامنا لبكرة؟ أنا راجع تعبان وهموت وأنام."**

فجاءه صوتها متحشرجًا، يكاد يختنق:

- **"أنا كمان هموت."**

تجمّد لوهلة، يفكر أن يغلق الهاتف وينهي المكالمة، لكن صوتها الذي كان ممتلئًا بالألم الصادق بدا مختلفًا. كان الذئب الذي يسكن داخله يتمتع بحسّ شم قوي، يستشعر فريسته عن بعد، ويتهيأ لالتهامها. وهذه الفتاة، التي بدت محطمة ومحبطة، صارت في نظره فريسة سهلة المنال.

واصل حديثه:

- **"ليه هتموتي؟"**
- **"إحساس.. حاسة إن النهاردة آخر يوم في عمري.. وإن دي الليلة الأخيرة اللي هعيشها."**
- **"طب ينفع نسيب حكاية الموت شوية ونتكلم في حاجة تانية؟"**
- **"مش إنت مخرج؟ خد كلامي ده واعمله فكرة فيلم سينما."**
- **"إنت غاوية تأليف أفلام؟"**
- **"لأ.. أنا غاوية تمثيل.. أو كنت غاوية تمثيل."**

****

قبل ثلاث سنوات

كانت تلك المرة الأولى التي تحضر فيها سلمى حفلة للاحتفال برأس السنة. استمعت وقتها إلى نصيحة صديقتها علياء: إذا كانت تحلم أن تصبح ممثلة حقًا، فالموهبة والجمال وحدهما لا يكفيان، بل عليها أن تُكوّن شبكة علاقات واسعة يعرفها من خلالها المخرجون والمنتجون.

لم تكن سلمى بارعة في التصرف داخل مثل هذه الأجواء الصاخبة، تائهة وسط الأضواء والموسيقى والوجوه الغريبة. اقتربت منها علياء وهمست في أذنها:

- **"تحركي بعفوية أكتر.. ماينفعش تفضلي واقفة متيبسة كده."**

ثم أشارت بيديها نحو رجل يقف غير بعيد. كان شابًا وسيمًا، تبدو عليه ملامح الثقة، في أواخر الثلاثينات من عمره. أخبرتها علياء أن هذا هو شادي شوقي، مخرج سينمائي صاعد، أخرج ثلاثة أفلام حتى الآن. ونصحتها أن تقترب منه وتعرّف نفسها كممثلة شابة تبحث عن فرصة.

ترددت سلمى كثيرًا؛ الخجل عقد لسانها. لكن علياء لم تمهلها، أمسكت بيدها واقتادتها نحوه وقدّمتها قائلة:

- **"أستاذ شادي، دي سلمى.. ممثلة شابة موهوبة جدًا، درست سنتين تمثيل برّه."**

ارتبكت ملامح سلمى بشدة عند سماع هذا الادعاء. شعرت بوجهها يحمر، فهي لم تدرس سوى كورسات بسيطة، لا أكثر. حاولت أن تبدو طبيعية أمام شادي، الذي بدوره التقط الكذبة من نبرة علياء ونظرة سلمى، لكنه لم يُرد إحراجها. اكتفى بابتسامة صغيرة، وإيماءة مهذبة، ثم انصرف بلطف.

تجمّد الدم في وجه سلمى؛ الغضب والخجل اجتمعا بداخلها. التفتت نحو علياء التي كانت تبتسم في سخرية وهي تقول:

- **"مش فاهمة إنتي عايزة تبقي ممثلة إزاي.. وإنتي حتى مش قادرة تدافعي عن نفسك."**

****

غيّر شادي وضعيته على السرير، اتكأ على الوسادة وألقى نظرة سريعة على الساعة بجانبه. بدا له أن المكالمة ستطول أكثر مما توقّع، وأن النوم الذي كان يتوق إليه قد تبخر بسبب تلك الصبية المجهولة. داخله حدس قديم يخبره أن الفتيات اللاتي يتصلن به في مثل هذه الأوقات لا يردن سوى دور في فيلم، أو فرصة للظهور. ابتسم بسخرية خفيفة وقال:

- **"تحبي تيجي.. أعملك كاستينج بكرة؟"**

لكنها لم تُعر كلامه أي اهتمام. لم تضحك، لم تتحرج، بل تجاهلته تمامًا، وصوتها جاء جادًا كالسهم:

- **"هتعمل إيه لو النهاردة الليلة الأخيرة ليك في الدنيا؟"**

توقف لبرهة. السؤال باغته. كان يتوقّع دلالًا، أو تلميحًا، أو حتى طلبًا صريحًا.. لكن ما سمعه بدت فيه مرارة حقيقية. أدرك أن مزاج تلك الفتاة سوداوي الليلة، وربما خطير. قرر أن يحاول صرفها عن فكرة الموت، فاختار الهروب بسؤال جانبي:

- **"ماقولتليش.. إنتِ جبتي رقمي منين؟"**

****

صرخت علياء وهي تحدّق في شاشة هاتف صديقتها:

- **"إيه ده! عرفتي تجيبي رقمه!!"**

أجابتها سلمى بهدوء فيه نبرة انتصار:

- **"أنا ماجبتوش.. هو اللي جالي لغاية عندي.. وكتب لي رقمه بنفسه."**

منذ تلك اللحظة شعرت سلمى أن في الأمر شيئًا مختلفًا. كان شادي يتعامل معها بخصوصية، يخبرها أنها صاحبة وجه واعد وأنها قادرة أن تصير نجمة ساطعة في سماء الفن. نصائح، كلمات دعم، نظرات إعجاب.. كل ذلك جعلها تظن أن اهتمامه بها أبعد من مجرد مجاملة عابرة. ظنت أن وراءه حبًا خفيًا.

اصطحبها إلى الحفلات، يقدّمها دائمًا كـ"النجمة القادمة"، وكانت تصدّق أن تلك المناسبات أهم لمستقبلها من أي موهبة أو تدريب. ومع الوقت صار كلامه بمثابة الحقيقة المطلقة: أن النجاح يحتاج جرأة، وأن عليها أن تجرّب كل شيء.

في إحدى الحفلات، مدّ لها كأسًا وأصرّ أن تجرب الكحول. قاومته قليلًا ثم استسلمت، محاولًة أن تثبت له أنها "مختلفة"، وأنها مستعدة لتكسر كل القيود. كأس وراء كأس.. حتى ضاعت ملامح الليل.

حين فتحت عينيها في الصباح، وجدت نفسها في غرفة غريبة، على سرير لا تعرفه، وبجانبها شادي نصف عارٍ. ارتجفت وهي تنظر إليه.. حاولت أن تستعيد تفاصيل ما حدث، لكنها لم تتذكر سوى آخر لحظة كانت فيها تُضحك الآخرين بصوت عالٍ قبل أن يسود الظلام في عقلها.

كانت تلك اللحظة فاصلة: لم تعد تعرف إن كانت هي من اختارت أم أنها سقطت في لعبة أكبر منها.

****

- **"عاجبني أوي قميص الكروهات ده."**

تجمّد للحظة وهو ينظر إلى ملابسه... كان بالفعل يرتدي قميصًا كروهات. انقبض صدره، وأدرك أن الفتاة لم تكن تهذي. إنها تراه.

بدأت عيناه تبحثان في أرجاء الغرفة، ثم نحو النوافذ. لحظات حتى جاءه صوتها من الهاتف:

- **"أنا قدامك... بص فوق."**

رفع رأسه بسرعة، فإذا بفتاة تقف عند نافذة شقة في العمارة المقابلة. شعر بالبرد يسري في عروقه وهو يراها تحدّق فيه مباشرة، ابتسامة غامضة على وجهها.

- **"إنت مين؟!!"**

صرخ من خلف الزجاج.

- **"نسيت صوتي؟"**

جاءه الرد من الهاتف، بنفس النبرة المليئة بالجرح.

في تلك اللحظة أدرك شادي أن الصوت ليس غريبًا تمامًا، بل مألوف... ينتمي إلى واحدة من نساء ماضيه. لكنه لم يستطع أن يجزم أيّهن بالضبط.

وقبل أن يحاول تذكّر المزيد، اخترق أذنه صراخها:

- **"لو ماجيتش لي حالًا... هارمي نفسي من الشباك!"**

اتسعت عيناه، وبدأ قلبه يخفق بسرعة. حاول تهدئتها بكلمات متقطعة، يستجدي منها بعض الوقت، أو اسمًا، أو أي خيط يدلّه على هويتها. لكنها كانت مصرة، صلبة، لا تسمح له بالهروب:

- **"تعالى دلوقتي... وإلا هتسمع صرخة النهاية."**

****

جلسَت سلمي أمامه تبكي بمرارة، وكان بجانبها يحاول التهدئة من روعها. وضع يديه على ذقنها ورفع وجهها لينظر في عينيها بحنان، وسألها أن تكف عن البكاء كالأطفال الصغار.

استمرت سلمي في أنينها، وربما شعرت أن أنينها يمنحه نشوة خاصة. عندها أخبرها بعين متحجرة تفتقد إلى أي نوع من العطف أو المشاعر، وألقى على مسامعها محاضرة عن الحياة:

"ما تفتكريش إن اللي حصل ده نهاية الدنيا.. ما تبقيش غبية.. لو فضلتي تعيطي كده مش هيغير حاجة.. لو فضلتِ تفكري في اللي خسرتيه مش هتاخدي بالك من اللي ممكن تكسبيه. سلمى، أنا هعرف أعوضك. في دور مهم في فيلمي الجديد كأنه متفصل عشانك. صحيح هو مش دور بطولة، بس هيبقى فرصة كويسة لواحدة بتبدأ حياتها الفنية. واللي حصل امبارح ننساه أنا وإنتي."

نظرت له سلمي بعينين حمراوين وقالت بصوت مبحوح:

"بالسهولة دي؟"

أجابها بضيق:

"على فكرة أنا ما أجبرتكِش على حاجة."

قالت بانكسار:

"لما تستغل إني مش في وعي ومش هقدر أقاوم.. ده مش إجبار؟"

رد ببرود:

"طول ما إنتِ بتفكري كده مش هتوصلي لحاجة.. فكري في عرضي أحسن."

انتهى الحديث بينهما، وتركها ورحل لتفكر في عرضه. كانت تشعر بالغباء حيال نفسها وحيال كل لحظة اعتقدت فيها أن شادي أحبها. شعرت أنها فقدت الكثير ولا تريد أن تفقد المزيد. فكرت طويلًا ثم اتصلت بشادي لتسأله عن الدور الذي وعدها به، وقامت بالدور بالفعل في الفيلم. كان ذلك بداية موفقة لها في عالم الفن، وتوالت عليها العروض بعدها، حتى نسيت ما حدث

****

فُتح الباب. دخل شادي فوجد فتاة جالسة على الأريكة، عيناها ناظرتان إلى الأرض، يبدو عليها الاكتئاب والحزن. ودّ لو ترفع رأسها قليلًا كي يتبين ملامحها. طلبت منه أن يغلق الباب خلفه ففعل، ثم اقترب منها ليتأكد من وجهها. بدأت ترفع رأسها تدريجيًا، وتمكن من التعرف على ملامحها، حتى كاد ينطق اسمها: سلمي. لكنها باغتته وأشهرَت في وجهه مسدسها.

بدت على سلمى علامات التوتر الشديد، وكانت يداها ترتعشان بقوة. فكر شادي أن يسايرها حتى يتمكن من أخذ المسدس منها. لكنها صرخت في وجهه:

- **"ليه عملت كده؟"**
- **"عملت إيه؟"**

زاد غضب سلمى، وأعادت سؤالها مهددة بالضغط على الزناد:

- **"ليه عملت كده؟"**

قال محاولًا تبرير موقفه:

- **"سلمى، أنا عوضتك ووفيت بوعدي. إنتِ مثّلتِ في الفيلم، وجالك عروض بعدها، وكنتي هتبقي نجمة. لكن إنتِ اللي بعدين قولتي إنك هتعتزلي الفن وإنك عايزة تتجوزي."**

ارتجفت سلمى بشدة، وحدقت في عينيه صارخة:

- **"ليه عملت كده.. ليه ما قلتليش إنك كنت بتصور؟"**

تجمد شادي وقد صدمه كيف عرفت أنها اكتشفت تصويره الخفي. كان يصور الفتيات مثلها من قبل، لا لابتزازهن، بل ليستعيد تلك اللحظات لنفسه فقط. نظر إليها فوجدها ترتعش، فأيقن أنها أضعف من أن تطلق النار. قرر أن يقترب منها ليأخذ المسدس من يديها.

أفلت المسدس من يد سلمى، وهي تصرخ قائلة إن الفيديو وصل إلى هاتف خطيبها السابق وتركها. كان شادي ينحني ليلتقط المسدس من الأرض، وفجأة شعر بالسكين تُغرز في كتفه، ثم طعنة أخرى في رقبته، أعقبتها طعنة ثالثة. سالت دماؤه على الأرض وعلى ثياب سلمى.

كانت تنوي قتله بالمسدس، لكنه انزلق من يديها، فقتلته بالسكين عوضًا عن ذلك. وبعد أن أدركت أنه مات حقًا، اتصلت بالشرطة وأخبرتهم بما حدث. وكانت تلك الليلة الأخيرة في حياة شادي.

الحكاية الخامسة:

قصة" الغفران "

مصر – السبعينات

إحدى قرى صعيد مصر بمحافظة المنيا.

- **"مش عايزاه.. مش عايزاه يا خاله.. خلّصيني منه."**
- **"ما ينفعش يا بتي.. حملك متأخر.. لو كنتِ قدمتي شوية.. يمكن كنت أقدر أساعدك."**

تبكي صفية بحرقة.. لن تستطيع التخلص من الطفل.

مرت أشهر حملها سريعًا.. وجاء وقت ولادتها.

كانت تدعو أن يموت الصبي عقب مولده مباشرة.. لكن الصبي وُلِد سليمًا مُعافى.

فكرت أن تتركه في الخلاء لعلّه يموت.. أو ربما يعطف عليه أحد ويكفله ويخلّصها منه.

لكن قلبها لم يقوَ على ترك صغيرها الأول يموت أو يُشرّد.. فاحتضنته، وقربته من صدرها، وأرضعته.

كان تصفيق الجمهور حارًّا لها تلك الليلة، وأصرّوا أن تؤدي وصلة رقص أخرى.

نزلت صفية من على خشبة المسرح تبحث عن ابنها ذي العشر سنوات:

- **"شنودة!.. رحت فين يا واد يا شنودة؟"**
- **"أيوه يما.. أنا هنا." يظهر شنودة من خلف المسرح مطأطئ الرأس.**
- **"كنت فين يا وله؟ مش ظاهر.. روح لمّ النقطة من الناس يا وله."**
- **"معلش يما.. ماليش أنا في الكلام ده.. خلي حماتو ولا أي حد من فريقتك."**
- **"طول ما إنت ماسك في الكتب دي مش هتنفع.. فوق يا وله.. أنا بربيك وبكبرك عشان تشتغل معايا في كار الموالد.. وتمسك الفرقة من بعدي. ياك فاكر ابن صفية الغازية يمكن يطلع دكتور ولا مهندز؟!.. ومراوِح الكنيسة تاني أنا مش عايزة.. ولا الكلام مع الشماس زيناتي!"**
- **"مال الكنيسة بس يما ومال الشماس زيناتي؟"**
- **"عشان هيقلبوك عليّا.. ويكرهوك فيّا وفي عيشتنا."**

يعبث شنودة بوجهه وينظر إلى الأرض.

تميل نحوه صفية وتنظر في عينيه باستعطاف:

- **"هو انت ممكن ييجي اليوم وتسيب أمك يا شنودة؟.. ولا تستعر منها؟"**
- **"لا يما.. مش ممكن أعمل كده."**

- **"هتكرهني يا شنودة لما تكبر؟"**
- **"لا يما.. ما اقدرش."**

****

بعد مرور عشرين عامًا

ازداد القرع على باب داره الصغير.. لم يُجب على أمل أن يظن قارع الباب أنه لا يوجد أحد في الدار.

أتاه صوت الغريب الذي يدق بابه قائلاً:

- **"افتح يا أبونا.. أنا عارف إنك عايز تهرب من المجد الباطل.. بس أنا محتاجلك.. بتي يا أبونا!"**

ظل ينظر إلى يديه بأسى.. لا يدري: أهذه بركة أم لعنة؟ ولماذا هو بالذات؟

كادت دموعه تنهمر، لكنها تحجّرت في عينيه.

وازداد قرع الغريب على الباب:

- **"أنا سمعت عن إيدك المبروكة.. ربنا جعلها شِفَا لناس كتير.. مش طمّاع غير إنك تحط إيدك على بنتي وتصليلها وهي تخف."**

ظل يقرع بشدة حتى كاد يكسر الباب.. فلم يجد الكاهن بدًّا من أن يفتحه.

دخل الغريب يحمل طفلته ذات العشر سنوات.. وأرتمى تحت قدمي الكاهن يخبره عن حالتها المرضية التي استعصت على الأطباء، وعن مفعول يديه الطاهرتين اللتين تشفيان المرضى بلمسة واحدة، حتى ذاع صيته في ملوي كلها، بل ربما في المنيا كلها.

لم يطلب الكثير، فقط أن يضع الكاهن يديه على ابنته ويصلي لها.

نظر لها الكاهن في أسى، وأخبره أنه ليس قديسًا ولا صاحب كرامات، ولا يقدر على شفاء أحد.

لكن الغريب ظل يتوسل إليه أن يضع يديه على ابنته.

تردد الكاهن كثيرًا.. الطفلة بدت متعبة وفاقدة للوعي.

رفع قلبه بالصلاة إلى الإله، وتشفع بالعذراء والقديسين، ثم وضع يديه على رأسها.

في البداية لم يحدث شيء.. بعد دقيقة بدأت الطفلة تستعيد وعيها.. ثم أصبحت قادرة على النهوض دون مساعدة.

نظر لها أبوها بفرح عظيم، ثم ركع على قدميه شاكرًا الرب، وحدّق بالكاهن وقد أيقن أنه قديس أعطاه الله القدرة على شفاء الأمراض.

ولم يمضِ وقت طويل حتى ذاع صيت الكاهن أكثر فأكثر..

صار الجميع في القرية والقرى المجاورة يأتون إليه ليضع يديه عليهم فيشفَون.. وكان الكاهن يرهب هذا المجد، لكنه لم يكن يملك أن يمنعهم، إذ كانوا دائمًا يجدون سبيلًا للوصول إليه، عالمين أنه يهرب من كل مجدٍ في هذا العالم.

****

بعد أن كساها المرض وفقدت جمالها، ورسم الزمن علاماته على وجهها؛ لم يعد لصفية سوى "فرحانة" تلك الطفلة التي ربتها بعدما هجرها ابنها شنودة.

كبرت فرحانة وأصبحت في السادسة عشرة من عمرها، وأكملت مسيرة صفية في الموالد، فكانت لها بمثابة الابنة.

ترى والدتها تذبل يومًا بعد يوم تحت وطأة المرض.. لم تحتمل فرحانة ما آلت إليه حالتها، فاقترحت عليها الذهاب إلى كاهن ذاع صيته بأن له قدرة على شفاء الأمراض، إذ يضع يديه على موضع الألم ويصلي للإله.

وكان يُقال أيضًا إن له قدرة على قراءة الطالع ومعرفة الغيب، وربما يستطيع أن يدلها على مكان ابنها المفقود.

لكن صفية كانت ترفض بشدة الذهاب إلى أي كاهن أو كنيسة. وربما عزت فرحانة ذلك إلى كون صفية راقصة في الماضي.

غير أن باب الرب مفتوح للجميع، حتى للخطأة. وإن كانت صفية تخجل من ماضيها، فما عليها إلا أن تخفي هذه الحقيقة عن الكاهن، وأن تطلب منه الصلاة مثل أي مريضة أخرى.

ألحت فرحانة على صفية كثيرًا لأخذها إلى ذلك الكاهن البعيد.. وأخيرًا وافقت صفية.

****

أصبح يهرب من جميع المرضى والناس الذين يأتون إليه لطلب البركة والشفاء.

كان ينظر إلى نفسه ويقول: لو علم هؤلاء من أنا.. من حقيقة ما أكون.. لاحتقروني حقًا، ولخسرت كل كرامة نلتها في أعينهم.

كلما قام بمعجزة شفاء وسمع تمجيد الناس له، أحس بالذنب العميق في داخله. بل ربما أحيانًا لام ربه على تلك الموهبة الربانية التي خصه بها، وشعر أنها لعنة تطارده لا نعمة ترفعه.

كان يهرب من الجميع. لكن أهل القرية لم يروا في هروبه سوى علامة تواضع، فردّدوا أنه يهرب من المجد الباطل، فازداد تبجيلهم له أكثر فأكثر.

وذات مساء، سمع طرقًا على الباب.

اقترب من الطّاقة ونظر، فإذا به الأب أشعياء.

نهض مسرعًا، فتح له الباب، وما إن رآه حتى ارتمى على صدره وبكى.

عاتبه الأب أشعياء برفق على اختفائه، ورفضه إقامة القداسات الإلهية.

ثم سأله مجددًا عن سبب غيابه عن القداس، مؤكدًا أن هذا لا يليق بكاهن مسحه الرب بنعمته، وأعطاه مواهب ليستخدمها في تمجيد اسمه.

قال شنودة:

– "أنا فقط أنفذ وصية السيد المسيح."

امتعض الأب أشعياء من الإجابة، وقال:

– "وهل طلب منك السيد المسيح الامتناع عن حضور القداسات وتناول الأسرار المقدسة؟"

أجابه شنودة:

– "أيوة مش هو اللي قال في الموعظة على الجبل:

«فَإِنْ قَدَّمْتَ قُرْبَانَكَ إِلَى الْمَذْبَحِ، وَهُنَاكَ تَذَكَّرْتَ أَنَّ لأَخِيكَ شَيْئًا عَلَيْكَ،

فَاتْرُكْ هُنَاكَ قُرْبَانَكَ قُدَّامَ الْمَذْبَحِ،

وَاذْهَبْ أَوَّلًا اصْطَلِحْ مَعَ أَخِيكَ،

وَحِينَئِذٍ تَعَالَ وَقَدِّمْ قُرْبَانَكَ»."

تغيّر وجه الأب أشعياء وسأله بجدية:

– "ومن هو أخوك يا أبونا أرميا؟"

صمت شنودة لحظة، وأشاح بنظره بعيدًا.

فقال الأب أشعياء:

– "اسمعني يا شنودة.. معلش هأناديك باسمك الدنيوي. لما طلبت منك تسيب والدتك ماكنش لأني بكرهها، ولا لأني عايز أقلبك عليها.

لكن أنا شفتك بذرة صالحة مزروعة في تربة فاسدة. وكان لازم أبعدك عن الجو ده.

لو كانت عندها استعداد للتوبة من قريب أو بعيد، كنا نحاول معاها.

أنا مش عايزك تهجرها، والإحسان للوالدين وصية. لكن فكر معايا: بعد ما بقيت كاهن، وربنا بيستخدمك وبيتمجد على إيدك، إيه اللي هيحصل لو أهل القرية والقُرى المجاورة عرفوا الحقيقة؟

إن قديسهم الجديد.. والدته كانت راقصة في الموالد، وابن مجهول الأب؟

الناس هنا تفكيرها بسيط، ومش هتستحمل حقيقة زي دي."

جلس شنودة ينظر إلى يديه بشعور من الحنق العميق، وكأنهما حبل يلتف حول عنقه.

****

بعد بحث طويل، تمكنت فرحانة من معرفة طريق الأب أرميا. لم يكن الوصول إليه أمرًا يسيرًا، فقد اعتاد التنكر والهرب من طالبي الشفاء، بينما كان الناس يعزون ذلك إلى رغبته في التخفي والزهد. لكن فرحانة عقدت العزم على الذهاب إليه ليلًا، برفقة خالتها صفية المريضة التي كان مرضها يزداد سوءًا. ورأت أن الذهاب إلى منزله خير من محاولة لقائه في الكنيسة، حيث ترفض صفية الدخول إلى أي كنيسة.

كان دار الأب أرميا متواضعًا للغاية، مبنيًّا من الطوب اللبن والطين، لا من الخرسانة، مما دل على زهد صاحبه وبساطة عيشه. كان المرضى يلتفون حوله، يطلبون منه الشفاء والبركة.

وقد عرف الجموع أن الأب أشعياء يزوره دومًا، باعتباره أبيه الروحي.

في تلك اللحظات كانت صفية تنازع. شعرت فرحانة بألمها، فافتعلت مشاجرة كبيرة مع الواقفين لتشق طريقها إليه. وبما لها من لسان سليط وصوت مرتفع، تمكنت من إدخال صفية إلى الدار رغم اعتراض الناس.

عندما دخلتا، قابلتهما يد الأب أشعياء، بينما الأب أرميا يرفض رفضًا قاطعًا مقابلة النساء.

سقطت فرحانة على وجهها أمام الأب أشعياء، ترجوه أن يسمح لهما بمقابلته، وأن يضع يده على خالتها صفية التي أرهقتها الحُمّى.

بعد توسلات كثيرة، وافق الأب أرميا على أن يقف خلف الباب ويصلي لها من بعيد.

لم تكن صفية تعلم أن ابنها هو الأب أرميا صانع المعجزات، لكنها شعرت بدنو أجلها. طلبت من الأب أشعياء أن تسمح لها لحظة اعتراف قبل الموت، لا طلبًا للشفاء. لم تعد تبالي بلمسة يديه، بل أرادت أن تبوح بما في صدرها.

بدأت تتحدث عن حياتها القاسية منذ مولدها، وعن الرجال الذين عرفتهم، وعن ابنها الوحيد غير الشرعي الذي هجرها منذ زمن بعيد. كانت كلماتها صلبة، ليست لهجة امرأة تطلب التوبة عند الموت، بل لهجة ساخطة، غاضبة من إله لم يستجب لصلواتها وهي صغيرة.

سألها الأب أشعياء:

– "يعني مكانش في ناس بتدعيكي للتوبة ؟"

أجابته بمرارة:

– "لا.. كنت وحدي طول حياتي."

أخذه العجب. كيف لم تذكره، هو نفسه الذي ناداها قديمًا لتتوب؟

وفي الغرفة المجاورة، كان ابنها شنودة يستمع لاعترافاتها وهو يبكي. بكى على ما عانته من شقاء، وعلى غضبها من الله. قال في نفسه: ألم تكن تعلم أن رسالة الإنجيل أن الله يحب جميع الخطاة؟ ثم تذكر أنه هو نفسه لم يغفر لها قط.. فكيف كانت لتغفر هي لنفسها أو تصدّق أن الله يحبها؟

ظلت صفية جامدة طوال اعترافاتها، حتى وصلت إلى ذكر ابنها شنودة. لم تذكر سوى اسمه. عندها انفجرت باكية. لم تصفه إلا بأنه وجع قلبي.

وبين بكائها، خيّم الصمت فجأة. سُمِع صوت فرحانة يعلو بالعويل.. لقد ماتت صفية.

ماتت قبل أن ترى ابنها، وكانت تلك آخر أمنية لها.

خرج الأب أرميا من غرفته، يرغب أن يودّعها للمرة الأخيرة، لكنه لم يقوَ على لمسها لشدة إحساسه بالذنب. ظن أنه سيبكي، لكن الدموع انحبست في عينيه، بل في قلبه.

ومرت الأيام والأسابيع والسنون. كان المرضى يأتون إليه، لكنه لم يعد قادرًا على شفاء أحد. غادرته موهبته الإلهية. وكأن تلك القدرة العجيبة لم تكن إلا بركة أمه.. ولما فارقت العالم، فارقته هي أيضًا.

تفرّق الناس من حوله بعدما خبت معجزاته، فقرر اعتزالهم، وقضى ما تبقى من حياته في صحاري الرهبان، يتأمل في سرّ الوجود، ويصلي أن يغفر الله لصفية.

الحكاية السادسة:

قصة " مريم الآثمة "

إحدى قرى محافظة الغربية – بداية التسعينات.

كعادته كل يوم، مرّ عم فتحي ليجمع فتيات المشغل، لكن مريم اختفت لليوم الثالث على التوالي. أثار غيابها قلقه، فقد شعر بمسؤولية نحوها؛ فهي فتاة يتيمة، تركها زوجها مع طفلها المريض، وليس لها أحد في الدنيا.

اقترب من منزلها، فشَمَّ رائحة نتنة تنبعث من الداخل. كسر الباب، فهاله المشهد: مريم وطفلها جثتان هامدتان.

القاهرة – 2013.

ما زالت كلمات ابنها تطنّ في رأسها: من أبي؟ من أبي؟ لماذا فعلتِ هذا؟ لماذا أخفيتِ عني الحقيقة؟

تذكرت ذلك والدموع تكسو وجنتيها. كيف تحوّل قلبه الصغير الذي نما بين أحشائها إلى حجر قاسٍ؟ كيف صار ابنها القاضي لا يعرف الرحمة، وقد نسِي كل ما فعلت من أجله؟

صوت داخلي يصرخ في أذنها: لن يسامحك ابنك ما حييتِ.. لا يوجد ابن يغفر لأمه ما فعلتِ.

شعرت بالاختناق. تأخر الوقت ولم يعد ابنها. خرجت بسيارتها تجوب الشوارع تبحث عنه. وبعد أن فقدت الأمل، عادت أخيرًا إلى منزلها. لكن الصوت ما زال يلاحقها: سيهجرك ابنك.. لن يسامحك ما حييتِ..

تناولت هاتفها. اتصلت به، لكن هاتفه مغلق. فتحت تطبيق "واتساب"، وسجّلت له رسالة صوتية وهي تبكي، ترجوه أن يعود. لم يقرأها. فأرسلت رسالة أخرى، وبدأت تقصّ فيها حكايتها.. الحكاية التي بدأت في أوائل التسعينات، في إحدى قرى محافظة الغربية.

كنتُ وحيدةَ أهلي، وكانوا فقراءَ لا يملكون من الدنيا شيئًا. لم أُكمل تعليمي الابتدائي حتى.. مات أبي وأنا صغيرة، فاضطررتُ للعمل في المشغل تحت رعاية عم فتحي، الذي كان يعاملني كابنته.

هناك قابلتُ أباك. كان متعلمًا، مختلفًا عن أهل القرية، يردد على مسامعي أبياتًا من الشعر كلما رآني. لم أكن أفهم حرفًا مما يقول، لكنني أحببت وقع كلماته، وأحببته. كنتُ يومها أجمل فتيات القرية، وهو كان يراني كذلك.

تقدّم لخطبتي، لكن أمي رفضت لأنه فقير وغريب عن قريتنا. ومع ذلك، تمسكتُ به وتزوجته. يا ليتني سمعت كلامها!

وضعتُ يوسف أخاك، وتركت العمل بالمشغل. لكن سرعان ما ساءت أحوالنا. ماتت أمي، وبدأ أبوك يتعاطى الحشيش، حتى ترك عمله. اضطررتُ أنا إلى العودة للمشغل، لأُعيل زوجي وابني.

صبرتُ كثيرًا، ورجوتُ أن تحدث معجزة تغيّر حاله. لكن البلاء جاءني من حيث لا أحتسب: مرض ابني.

كانت الحمى تفتك بجسده الصغير الذي لم يُكمل عامه الأول. كنت أراه يتألم، وكنتُ أموت معه كل يوم. أحمله من طبيب إلى طبيب، وليس معي حتى ثمن الدواء. كنتُ امرأة فقيرة، جاهلة، زوجة مدمن لا يبالي، وأمًّا يحترق قلبها على صغيرها.

إلى أن قابلتُه..

طبيب البلدة.

كان يعرف قصتي كلها، ويعرف حاجتي. استغل ضعفي وحرقة قلبي على ابني. وعدني بالدواء مجانًا.. لكن الثمن كان أنا.

حين سمعت عرضه، كدتُ أصفعه. لكن نظرتُ إلى طفلي الذي يحتضر بين ذراعي.. ولم أستطع. حاجتي قيّدت يدي ولساني. وافقت. نعم، بعتُ جسدي وشرفي لأُنقذ أخاك. كنتُ مضطرة، يا بني. كنتُ أمًّا ترى ابنها يموت، وليس لديها ما تقدمه إلا جسدها.

أخطأت؟ نعم. لكنني كنتُ جاهلة، غارقة في فقري ويأسي.

****

في تلك الليلة عدتُ إلى البيت والدواء بيدي. وجدتُ أباك في الدار، لا يقوى حتى على الكلام من أثر المخدر. نظرتُ إليه طويلًا، ثم بصقتُ في وجهه بعد أن فرغتْ كل الشتائم من لساني. أعطيتُ الدواء لابنك، وتحسن قليلًا، وصرتُ أذهب إلى الطبيب كلما أردتُ الدواء.

إلى أن عدتُ ذات يوم فوجدتُ أباك قد هجر البيت. تركني وحيدةً.

وكأن الله أراد أن يعاقبني على فعلتي؛ عادت الحمى لابني أشد من قبل. مات بين يدي، وأنا أصرخ وأنتظر أن يقوم. لم أصدق، ولم آكل أو أشرب حتى سقطتُ مغشيًّا عليّ.

أفقتُ في المستشفى بعد أن كسر الجيران باب البيت بسبب الرائحة. هناك أخبروني أن ابني مات.. وأنني حامل بك.

نعم، يا يوسف.. أنت ابن طبيب القرية. لكنني اعتبرتك عوض الله عن أخيك. لم أكن أعلم ماذا أفعل. ماذا سيقول أهل القرية عني؟ لم يكن أمامي إلا الهرب إلى القاهرة. أخذتُ معي شهادة ميلاد أخيك، وكتبتُ اسمك "يوسف" مثله، وأخفيتك عن العيون عامين كاملين.

عملتُ خادمة في البيوت لأُربيك. هل هذا لا يشفع لي عندك؟ هل صار قلبك حجرًا؟

كنتُ أهرب بك إلى القاهرة كما هربت مريم العذراء بولدها إلى أرض مصر لتحميه. لكنني لم أكن عذراء، بل كنتُ مريم الآثمة.

****

ظلّت مريم تبكي.. أشعلت سيجارة، ثم أعدّت فنجان قهوة. جلست تسترجع كل الذكريات، بينما الصوت في داخلها يعلو:

لن يسامحك ابنك ما حييتِ.. لا يوجد ابن يغفر لأمه ما فعلتِ.

تناولت سيجارة أخرى، وازداد توترها وقلقها. جربت الاتصال بيوسف مرة أخرى، لكنه لم يرد. بدا واضحًا أن الفتى لن يغفر لها. أمسكت الهاتف وأرسلت رسالة عبر "واتس آب"، كانت تصرخ فيها:

"أنا أمك! سواء كنتُ آثمة أم قديسة.. أنا أمك! ومهما فعلتُ.. أنا أمك! ويجب أن تغفر لي!"

لكن يوسف لم يفتح تلك الرسالة الصوتية أيضًا.

انهارت مريم. شربت عددًا لا يُحصى من فناجين القهوة، وأفرطت في التدخين. ثم أمسكت الهاتف وأكملت تسجيلها:

****

*"عاد أبوك مرة أخرى إلى حياتي.. لا أدري لماذا ما زلتُ أحب أن أناديه "أبوك". ربما لأنني ما زلتُ أراك يوسف الأول، ربما لأنني حين ولدتك شعرت أن ابني بُعث من جديد.

ولم أكن وحدي من أراد أن يصدق ذلك.. أبوك أيضًا عاد يبحث عنك. يبدو أنه لم يعلم من أهل القرية أن ابنه مات. بطريقة ما وصل إليّ. كنتَ وقتها في العاشرة، بينما شهادة ميلاد أخيك تقول إنك في الثانية عشرة.. لم يكن الفرق كبيرًا، حتى أبوك خُدع.

لكنه هذه المرة لم يكن الرجل المدمن قليل الحيلة.. بل عاد غنيًا، قويًا، مقتدرًا. عرض عليّ المال.. كل ما يملك، وكأنه أراد أن يعوضني عن سنوات الذل. لكنه جاء متأخرًا جدًا.

كرهت ضعفه القديم، فانتقمت منه بخديعته. جعلته يصدق أنك ابنه، ليصرف عليك، ويهتم بك كابن له. كنتُ أريد أن يُكفّر عن ذنبه تجاه أخيك.. باهتمامه بك. فأنت كنت عوضي عنه..*

****

رفعت رأسها إلى النافذة، كان الصباح قد أشرق، لكن ابنها لم يعد. دموعها جفّت كأنها استنزفتها كلها في تلك الليلة. أخرجت هاتفها، نظرت إلى رقم يوسف، إلى الرسائل التي لم تُقرأ. في محاولة يائسة أرسلت تسجيلًا أخيرًا:

*"نعم.. لم أخبرك بالحقيقة. وما كنتُ لأفعل. حتى حين ذهبتَ مع أبيك إلى المستشفى، وعرفتَ بالصدفة أنك لست ابنه. ألستَ تدينني لأنني كذبت؟ نعم، كذبت. وكنتُ على استعداد أن أكذب أكثر.. لأحميك.

كنتُ أريد أن أحمي عالمك النقي السعيد. لماذا أخبرك بحقيقة لا تجلب إلا الجرح؟ لماذا أُؤذيك وأؤذي أباك وأؤذي نفسي؟

قل لي يا بُني.. هل تلومني لأنني تمسكتُ بك؟ أم لأنني كذبت؟ أم لأنني دفعت ثمنًا غاليًا لأُنقذ أخاك؟"*

ألقت الهاتف من يدها، وانفجرت في بكاء هستيري. الصوت في داخلها يعلو بلا توقف:

لن يسامحك ابنك ما حييتِ.. لا يوجد ابن يغفر لأمه ما فعلتِ..

يتردد صداه كالرصاص في عقلها:

لن يسامحك.. ما حييتِ

لن يسامحك.. ما حييتِ

لن يسامحك.. ما حييتِ

****

ثلاثة أيام مرّت، ومريم متكومة داخل منزلها.

عاد يوسف أخيرًا.. عاد الابن الضال إلى أمه "مريم الآثمة". لكنه عاد متأخرًا جدًا.

حين دخل البيت، استقبلته رائحة نتنة.. وجد أمه جثة هامدة منذ يومين. لم يشعر بها أحد.

كان قد عاد ليأخذ ما تبقى من أشيائه ويتركها إلى الأبد كنها سبقته وتركته هي الي الأبد.. حينما شعر فقط أنه استطاع أن يغفر لها.. أن يسامحها بعدما فارقت الحياة.

الحكاية السابعة:

قصة " ما وراء القضبان"

مَشيت.. مَشيتُ لا أدري كم مشيت. كنتُ أَجوب شوارع القاهرة الكبرى بلا وجهة، أتأمل وجوه العابرين لعلّي أجد فيها ما يبدّد غربتي. سمعت رنين هاتفي يتردّد من داخل حقيبة يدي.. بالتأكيد كانت رنا، أختي الصغرى، تحاول الاطمئنان على شقيقتها الكبرى التي لم تعد إلى البيت حتى الآن.

جلستُ أخيرًا على أحد المقاعد المطلة على النيل، حدّقت في مياهه، وبدأت الذكريات تتدفق..

اسمي نيهال. تخرّجت في كلية الصيدلة، وكانت الحياة يومها تفتح ذراعيها لي، تغمرني الأحلام، وأشعر أن المستقبل يسير أمامي بخطى واثقة. كنت أعيش مع أمي ورنا التي تصغرني بعامين. وقتها، طلبت أمي من جارتنا السيدة ماجدة، صاحبة شركة أدوية، أن تساعدني في العمل لديها. بالفعل عملت معها، وسارت الأمور في بدايتها على خير ما يُرام. تقدّمت سريعًا في عملي، وتقرّبت من السيدة ماجدة، وكنت أُكنّ لها احترامًا كبيرًا وأعتبرها صاحبة فضل عليّ.

لكن كل شيء تغيّر.

ماجدة استغلت سذاجتي وقلة خبرتي، وورّطتني في استلام منتجات طبية فاسدة، لتقدّمني أنا وحدي كبش فداء أمام القضاء.

خلال فترة التحقيقات، ورغم كل ما وُجه إليّ من تهم، لم أفقد الأمل. كان في داخلي يقين أن براءتي ستظهر، رغم أن كل الأدلة كانت ضدي، ورغم أن المحامي كان يهمس لرنا بأن موقفي ضعيف للغاية. وحتى وأنا داخل قفص الاتهام، كنت أشعر أن شيئًا ما سيحدث، سيقلب الموازين، وسيُنصفني.

لكن صوت القاضي شقّ الصمت: "عشر سنوات سجن".

رأيت أمي تسقط مغشيًا عليها في قاعة المحكمة، وارتسم على وجه رنا ذهولٌ وحيرة وقلة حيلة. أما أنا، فكنت أصرخ كمشهد في أحد الأفلام:

"أنا بريئة!.. أنا بريئة!"

أقاوم العسكري الذي يسحبني إلى الخارج، إلى عربة الترحيلات.

صوتي الداخلي كان يصرخ: هذه ليست النهاية.. لا يمكن أن تكون النهاية!

وصلت إلى السجن. أتممت الإجراءات، وارتديت ملابس السجينات. نظرت من حولي.. كل شيء بدا لي غريبًا، كأنني أشاهد فيلمًا دراميًا، أو الجزء الثاني من "سجن النسا". لكن سرعان ما اصطدمت بالحقيقة: أنا هنا، سجينة مثل باقي السجينات.

ثم ارتجف داخلي حين مرّ بخاطري ذلك السؤال المرعب:

هل سأقضي عشر سنوات من عمري في هذا المكان؟!

عشر سنوات تُنتزع من عمري ثمنًا لغلطة لم أرتكبها! بينما من ارتكبها يعيش الآن خارج هذه الجدران، هادئ البال.

شعرت بالمرارة تتجرعني.. لأول مرة في حياتي فهمت معنى كلمة "ظُلم".

كنت دائمًا أسمع المثل: "ياما في السجن مظاليم". لكن أن أصبح أنا واحدة من هؤلاء المظاليم.. فذلك شيء آخر تمامًا.

****

العام الأول في السجن

كنتُ أشعر دائمًا أن وجودي هنا خطأ جسيم، غلطة كونية لا تُغتفر. هذا ليس مكاني الحقيقي. لست مثل الباقيات. هنّ استحققن أن يكنّ هنا، أما أنا فمظلومة.

كانت نهارات السجن طويلة متشابهة، وعندما يحلّ المساء أنظر إلى السقف البارد، فأستوعب أن هذا هو سقف عالمي الجديد.. فأبكي بمرارة.

كنت أظن أن الجميع يجب أن يعاملني معاملة خاصة، فأنا لم أرتكب ذنبًا، وجودي هنا مجرد استثناء. وإذا عَنّفتني إحداهنّ لسبب تافه، أودّ أن أصرخ في وجهها: "ألا تعلمين أنني لست مثلكن؟! أنا صيدلانية متعلمة، لست مجرمة مثلك!".

كنت أضع نفسي في مرتبة أعلى من باقي السجينات، أكثر علمًا، أكثر ثقافة، وأكثر شرفًا.. لكن الحقيقة أن هذه الحدود كانت في عقلي فقط. في الواقع، لم أكن سوى واحدة منهنّ. هذا المكان لا يضمّ المجرمين وحدهم، بل أيضًا المظلومين.

شيئًا فشيئًا، بدأت أستمع إلى قصصهن. وعندما دخلت السجن أول مرة، ظننت أنني أتعس النساء، لكن بعدما سمعت ما عشنه، أدركت أن العالم لا يدور حولي، وأن هناك من دفعت ثمنًا أقسى بكثير. وجدت نفسي أتعاطف معهنّ، حتى مع مَن ارتكبن جرائم دفعتهن الظروف إليها.

من بينهن كانت نشوى، فتاة قريبة من عمري، ارتحت لها وتقربت مني حتى صرنا صديقتين. أقول صديقتين مجازًا، لأنني في داخلي ظللت أحتفظ بمسافة بيني وبينها، وكأنني أطهّر نفسي من "إثمها". لكن الحقيقة أنني كنت أحتاجها، وكانت صديقتي فعلًا. وسألت نفسي ذات يوم: لماذا أضع نفسي في مرتبة أعلى؟ ربما لو مررت بظروفها، لكنت فعلت ما فعلت هي.

خسارات متتابعة

مضى عامي الأول، وبقي أمامي تسعة. شعرت أن حياتي أصبحت مدينة لي، وأن عليها أن تعوضني يومًا ما. لم أكن أعلم وقتها أن الحياة لا تعوض أحدًا. نحن فقط من علينا أن نجد تعويضنا بأنفسنا.

كنت أمقت ماجدة أكثر من أي شيء. أتخيلها وهي تسقط، تخسر مالها، أو تفقد ابنها الوحيد. كنت أنتظر عدالة السماء. لكن في كل مرة كانت رنا تخبرني أن ماجدة بخير، تزداد غناها وتشتري سيارة جديدة، كنت أبكي كما بكيت يومي الأول هنا.

مرت سنوات، اعتدت السجن، وتوقف بكائي ليلًا. صارت نهارات السجن عادية كأي نهار في الخارج. صار لي انتماء غريب لهذا المكان، حتى وأنا مظلومة. الشيء الوحيد الذي كان يرعبني هو "سيدة"، السجينة التي حاولت التحرش بي مرارًا. كنت أهرب منها أحيانًا وأقاومها أحيانًا أخرى. شكوت سرًا إلى نشوى وطلبت منها ألا تفارقني، حتى ارتحت بخروج سيدة من السجن.

العام السادس.. الفقد الأكبر

عامي السادس كان الأسوأ على الإطلاق. تغيّبت رنا عن زيارتي طويلًا، ثم جاءت أخيرًا ترتدي السواد. دق قلبي بجنون. جلست تبكي، ثم قالت: "أمي ماتت.. كانت آخر كلماتها اسمك".

لم أستوعب. لم أنطق حرفًا. قضيت يومًا كاملًا صامتة، كأن الألم نزَعَ لساني. شعرت أن قلبي تحرك من مكانه من شدّة الوجع.

تذكرت موت أبي، كم بكيت عليه. لكن موت أمي كان أوجع. ليس لأنني كنت أقرب إليها، بل لأن أبي مات في بيته، بين أحبته، أما أمي فماتت وفي قلبها حسرتها عليّ، ماتت ولم تستطع أن تزورني ولو مرة واحدة، ماتت دون وداع. وكأنها حملت معها آخر ذرة أمل لي في هذه الحياة.

انتهت سنوات حكمي، وخرجت مبكرًا لحسن السير والسلوك. لكن عند خروجي أدركت حجم الخسارة.

لم أعد نيهال الصيدلانية، بل أصبحت "رد سجون". ابتعد عني أصدقائي القدامى، وأصبحت فرصي في العمل شبه معدومة. رأيت شعيرات بيضاء في رأسي.

دخلت السجن في منتصف العشرينات، وخرجت في أوائل الثلاثينيات. ضاعت أجمل سنوات العمر بين جدران باردة، وأنا أحمل لقبًا لم أختره: سجينة بريئة.

****

دخلت رنا إلى الغرفة بوجهٍ شاحب. قالت إن هناك ضيفة تنتظرني. سألتها: "من؟" فجاءت المفاجأة: ماجدة.

خرجت إليها. كنت أظن أنني سأصفعها بمجرد أن أراها، لكنني لم أفعل. تماسكت وتحدثت بغلّ لم أخفه. عرضت عليّ العمل معها مجددًا. ابتسمتُ بمرارة:

– "هل تريدين أن تسجنيني مرة أخرى؟"

أجابت: **"- أفعل ذلك لتعويضك.. ضميري يلاحقني منذ يوم سجنتِ. لكن وقتها لم أستطع مساعدتك، كنت سأُقدَّم أنا للقضاء. كنتِ كبش الفداء المتاح. تألمت كثيرًا لحالك أنتِ ورنا بعد موت والدتك. هذه فرصة مناسبة لكِ، فأنتِ لن تجدي عملًا بسهولة، وعملي الجديد بلا مسؤوليات عليك".**

طلبت وقتًا للتفكير، لكن الحقيقة أنني اقتنعت سريعًا. كنت في أمسّ الحاجة إلى عمل. وافقت.

رنا اعترضت بشدة. لم تغفر لها ما فعلت. قالت بدهشة: "كيف تعملين عند من دمّرت حياتنا؟ كانت سببًا غير مباشر في موت أمي**!**"

لم أجبها. ليس لأنها مخطئة، بل لأنها لم تمر بما مررت به أنا. كنت قد تنازلت عن فكرة الثواب والعقاب. أدركت أنني لن أُعوض عن ظلمي، وماجدة لن تدفع ثمن ما فعلته. والواقع يقول: أنا التي أحتاج إليها.

كنت سعيدة بعملي الجديد، فدواليب حياتي بدأت تدور من جديد. علمت أن الشركة كبرت في غيابي، توسعت مشاريعها وتعاملاتها الدولية. ابن ماجدة الصغير الذي تركته طفلًا أصبح شابًا في الجامعة، ورُزقت بطفل آخر. عندما حسبت عمره وجدته يساوي تقريبًا سنوات غياب أمي في فراشها. تساءلت: حين زار الموت عائلتي.. هل زارت الحياة عائلة ماجدة؟

بمرور الوقت فهمت طبيعة عملي الحقيقي. صحيح أنني لست مسؤولة قانونيًا، لكنني اليد التي توقّع كل الاتفاقيات المشبوهة. ربما اختارتني ماجدة لأنها تعرف أن حاجتي ستجعلني أوافق، ولأنني أعرف جيدًا أن أعمال الشركة ملوّثة. وكانت صائبة؛ فقد أديت دوري ببرود، متجاهلة مثاليتي القديمة.

حتى ظهرت أمامي نانسي.

طبيبة شابة، تذكرني بنفسي قبل السجن: رومانسية، مثالية، لا تتنازل عن مبادئها. مهمتي أن أجعلها تتنازل. تحدثنا طويلًا. كانت تنظر إليّ باحتقار، تراني إنسانة بلا ضمير، بينما هي وحدها "ابنة المبادئ". استفزّتني حتى رويت لها عن سجني ومعاناتي، علّها تفهم أن الواقع لا يترك لنا خيارًا. لكنها ردت ببرود: "الظروف لا تجبرنا، يظل لدينا دائمًا اختيار".

أحسست أنها تتحدث بسطحية. لم تذق يومًا واحدًا في السجن، ولا عاشت موسومة كـ"ذات سوابق". فشلتُ في مهمتي. نانسي كانت عنيدة، بل وهددت بتسليم أدلة تدين الشركة للشرطة.

أخبرتُ ماجدة بما حدث. وبعد أسبوع، جاءني خبر موت نانسي في حادث سير. غلى الدم في عروقي. هرعت إلى مكتب ماجدة أطلب تفسيرًا. أنكرَت أي علاقة. قالت إنها حزنت لموتها، وإن القدر كان قاسيًا عليها. ابتسمتُ بمرارة. أيُعقل أن يهديها القدر موت من هددت حياتها صدفة**؟!** لست متأكدة، لكنني لا أستبعد أنها وراءه.

كان موت نانسي صفعة أيقظتني. رأيت أين وصلت. قدمت استقالتي.

خرجت إلى شوارع القاهرة، أمشي بلا وجهة. وجوه الناس تمر أمامي كأنها مرايا لحياتي. سألت نفسي: أين العدل؟ أين الحق؟

لم أجد الإجابة. لكنني عرفت أن الوقت حان لأجيب على اتصالات رنا. أخبرتها: "تركت العمل.. وسأعود إلى البيت".

مشيت ومشيت، لا أدري كم مشيت. كنت أبحث عن معنى واحد، معنى ضائع بين الظلم والخذلان: العدالة.

الحكاية الثامنة

قصة " الرقصة الاخيرة "
ارتدت سوسن بدلة الرقص. نظرت في المرآة. البدلة قديمة، مهترئة قليلًا. فكرت في الأجرة التي ستتقاضاها الليلة: "ربما تكفي لشراء بدلة جديدة... لكن الإيجار أولى."

كان قد تأخر عليها شهرين، والمال نفد منذ آخر عرس دُعيت إليه. تعرف جيدًا أنها راقصة من الدرجة الثالثة. الطلب عليها قلّ، والأجر انخفض حتى اضطرت لإحياء عرس في هذه الحارة العشوائية.

وضعت أقراط أذنيها. رأت وجهها في المرآة: جميلة. بل أكثر من جميلة. كانت تعرف ذلك دائمًا؛ جمال نادر كان يستحق أن يضعها في صف راقصات القمة، أو نجمة سينمائية لامعة. لكن القدر كان له رأي آخر.

بطرف عينها نظرت إلى الجزء الذي تتجنّب النظر إليه دائمًا: الجانب الأيمن من رقبتها الممتد إلى كتفها. هناك يرقد أثر الزيت المغلي الذي سكبه زوجها السابق في مشاجرة قديمة. تشوّهٌ حرصت أن تخفيه بوشاح لا يفارقها.

ألقت نظرة من بعيد على مدعوين للعرس. معظمهم شبه غائبين عن الوعي، غارقين في مخدراتهم. لم يلاحظ أحد انزلاق الوشاح عن رقبتها وهي ترقص. تمنت في داخلها لو تتحسن ظروفها لتجري عملية تجميل تعيد لها ما سُلب من جسدها.

ناداها أحد أفراد فرقتها. استعجلها. نظرت في المرآة نظرة أخيرة، تنهدت بعمق، وتمتمت: "يا رب خلّصني من ده كله في غمضة عين." ثم خرجت إلى المسرح.

في الطابق الأعلى، فوق أحد أسطح البنايات، جلس السيد مشرف. سبعيني يسكن غرفة ضيقة متواضعة. لا رفاهية فيها ولا راحة، ومع ذلك كان راضيًا بما قسم الله له.

يقول دومًا لمن يسأله: "عشت الحياة بطولها وعرضها، استمتعت بكل لحظة فيها. علام الندم إذن؟"

كان الجميع يعرفون أنه في الأصل "بيه" من البهوات، لكن الزمن دحرجه حتى استقر هنا، بين جدران عشوائية. لا يأسف، ويقسم أنه لو عاد به الزمن لبعثر ثروته كما فعل.

الليلة، كانت ضوضاء العرس في الحارة تزعجه. لكنه التمس العذر للجيران؛ هكذا يفرحون.

أطل من النافذة. رأى الراقصة على المسرح. الأضواء، الموسيقى، الهتاف... بهجة مفتعلة لا تروقه. ترك المشهد وسرح.

كان يحسب ما جمعه من مال. مبلغ يكفي تكاليف "خرجته" كما خطط لها. يريد جنازة لائقة، عزاء كبير يحضره رفاقه البهوات الأحياء. أكثر ما يشغله الآن مكان دفنه. نومته الأخيرة يجب أن تكون مريحة. بالفعل اشترى قبرًا منذ أسبوعين بعد أن عاينه بنفسه.

ابتسم ساخرًا: "في هذا العمر، شراء قبر تحت الأرض لا يختلف عن شراء قصر فوقها."

****

أثناء أداء سوسن رقصتها وسط صخب جموع الفرح وارتفاع ضجيج الموسيقى من خلفها، سمعت صوتًا يشبه صوت عبد الحليم حافظ يردد كلمات عن قلبها أو دقة قلبها. شعرت بوخزة في صدرها، وبدأت دقات قلبها تهدأ شيئًا فشيئًا، ثم سقطت أرضًا.

في البداية ظن الجميع أنها فقدت وعيها، لكن أحد الحضور جس نبضها فوجده متوقفًا. ساد الذهول بين المدعوين: الراقصة ماتت على خشبة المسرح.

وللسيطرة على الموقف، طلب أصحاب الفرح من فرقتها حملها إلى الخارج، ثم دفعوا أجرها وأجرتهم، واقترحوا أن يضعوا جثمانها مؤقتًا في غرفة خالية فوق السطح.

كانت هذه الغرفة بجوار غرفة السيد مشرف. وبرغم أن موت الراقصة أحدث ضجيجًا في الحارة، وجعل القشعريرة تسري في عروق الصغار الذين أخذوا يرددون: الراقصة ماتت، إلا أن السيد مشرف، وقد أثقل السمع بفعل العمر، لم يسمع شيئًا. ظل في غرفته هادئ البال.

جاء بعض رجال فرقتها ووضعوا الجثة في الغرفة المجاورة. كانوا متأثرين بشدة من موتها المفاجئ. قال أحدهم:

– يجب أن نحضر طبيبًا كي يكتب سبب الوفاة.

وقال آخر:

– يجب أن نخبر أهلها ليستلموا الجثمان ويدفنوه.

لكن أحدًا لم يكن يعرف من أهلها. فقال ثالث:

– بل نحن أهلها، علينا أن ندفنها ونقوم بواجب العزاء.

وقال رابع:

– وماذا سنفعل الآن بالجثة؟ لن يأتي أحد لاستلامها.

ظلوا محتارين حتى اتفقوا على أن يحاولوا أخيرًا الوصول إلى أي شخص من ذويها، وإن لم يحدث، فسيتولون هم أمر دفنها وإقامة العزاء. ثم تركوها في الغرفة مؤقتًا.

في تلك الأثناء، كان أحد الحضور يتبعهم خلسة. شاب صغير يُدعى كرم، كان في الصفوف الأولى من المتفرجين على رقصها. حضوره لم يكن صدفة؛ فقد جاء خصيصًا من أجل سوسن، معشوقته السرية. يتتبع أخبارها، ويحرص على حضور أي فرح تحييه ليقترب منها ويستمتع بسحرها.

وحين سقطت أرضًا، لم يتركها. تبع أثرها حتى رآهم يضعونها في الغرفة. انتظر حتى غادر الجميع، ثم تسلل إليها.

اقترب من الجثمان، ظل يتأملها في صمت، ثم ابتسم وقال:

– أنتِ نائمة يا حبيبتي... يقولون إنها نومتك الأخيرة.

قال ذلك وهو يمرر يده على شعرها، ثم أكمل:

– كم انتظرتُ أن تأتي اللحظة التي تجمعنا معًا. أنا مفتون بكِ يا سوسن، وكنت أحلم دائمًا أن تكوني لي وحدي. لكن عمركِ انتهى قبل أن يحدث هذا...

رآها جثة هامدة، لكنها ما تزال امرأة نافذة الجمال. فاشتهى حسنها، وتمنى أن يجتمع بها ولو في تلك الحالة.

في أثناء ذلك، أفاق السيد مشرف من نومه وقد فاجأه ذلك الهدوء الذي عمّ الحارة، مع أن بها عرسًا وراقصة جاءت لإحيائه. لكنه لم يهتم كثيرًا، وخرج من غرفته متجهًا إلى صنبور المياه لغسل وجهه.

رأى من بعيد رجلًا يصعد إلى السطح، بدا من ملبسه أنه ليس من أبناء الحارة. كان أحد أعضاء الفرقة. دخل الغرفة التي ترقد فيها سوسن، فوجد كرم يحاول الاقتراب منها. جذبه بشدة محاولًا منعه من لمسها، لكن كرم دفعه بعنف وحاول الوصول إليها من جديد. نشب شجار بينهما، وصاح عضو الفرقة في وجهه:

– إنها ميتة... ميتة!

لكن الشاب بدا كأنه لا يعي ما يفعل، وكأنه واقع تحت تأثير المخدرات.

سمع السيد مشرف أصواتهما المرتفعة، فدخل الغرفة ليرى أغرب مشهد يمكن أن يُرى: فتاة بملابس راقصة ترقد على سرير، ورجلان يتشاجران بجانبها. وأخيرًا استطاع عضو الفرقة السيطرة على كرم وطرده من المكان.

نظر السيد مشرف إليه في انتظار تفسير. أخبره عضو الفرقة القصة باختصار، فذُهل مشرف: هذه الفتاة التي ترقد أمامه، في عمر الورد، ماتت اليوم! طلب منه الرجل أن يبقى بجوارها تحسبًا لعودة ذلك الشاب مرة أخرى، فوافق السيد مشرف وبقي معها.

جلس ينظر إليها. بدت له نائمة فحسب. تنهد طويلًا وقال:

– اليوم، عندما ينتصف الليل، سأكون قد أتممت عامي السبعين... وأنتِ كما أرى فتاة في العشرينات. أيكون ملك الموت قد فقد التمييز بيننا؟ من منا أحق بالموت: أنا أم أنتِ؟

ثم تابع:

– علمت من فرقتك أنه ليس هناك من يتسلمك. لا بأس يا ابنتي... فأنا أيضًا عندما يحين أجلي لن يكون هناك من يستلمني، إذ لم أنجب.

نظر إلى وجهها، وخُيّل له أنها تبكي. عزى ذلك لضعف بصره، ففرك عينيه ونظر من جديد. لم تكن هناك دموع حقيقية، لكنه تراءى له أنها تبكي صامتة. ظن أنه يهذي ربما لكبر سنه وقرب أجله.

في تلك اللحظة، تحرك أحد أصابعها. اتسعت حدقتا عينيه، غير مصدق. اقترب منها ليتأكد إن كانت تتنفس، وبينما يقترب من صدرها انزلق الوشاح عنها، فظهر الجزء المحروق من جسدها. أجفل وتراجع لا إراديًا. شعر أنها تخاطبه، لكن فمها كان مغلقًا. سألها:

– ماذا تريدين؟

شعر بذبذبات صوتية من حوله، لم يعرف مصدرها. ثم أحس همسًا عند أذنه. تعجب: كيف يسمعه، وهو ثقيل السمع منذ سنوات؟! كان همسًا غامضًا، ليس بكلمات واضحة، لكنه أدرك المعنى: سوسن تطلب منه أن يدفنها.

مع اقتراب الفجر، لم يستطع أعضاء الفرقة العثور على أهل سوسن. فاقترح السيد مشرف أن يتكفل هو بمصاريف الدفن والجنازة، وأن تُشيّع من هنا. أحضروا مغسّلة لتغسلها، واشتروا من أجرتها كفنًا لها.

وأثناء التغسيل، خلعت المغسلة عنها حليّها. أُعجبت بقرط أذنيها وأخذته لنفسها، إذ كانت تعلم أنها بلا أهل. أما بقية ذهبها فاقتسمه أعضاء الفرقة، بينما وزعوا ملابسها وبدل الرقص على نساء الحارة، مع أن بعضهن رفضن أخذ شيء وعدّوه فأل شؤم.

جاء الطبيب، واستخرج شهادة الوفاة، ودُفنت في القبر الذي كان السيد مشرف قد اشتراه لنفسه. أنفق عليها ما كان قد جمعه من مال لآخرته.

وبعدها عاش ثلاثة عشر عامًا أخرى، حتى بلغ الثالثة والثمانين. وتمكن خلالها من جمع مبلغ جديد، فاشترى قبرًا مجاورًا لقبر سوسن الذي أصبح قبره الأساسي. وعندما مات، دُفن إلى جوارها.

الحكاية التاسعة:

قصة " دائرة الانتقام "

تزوجتُ من مجدي منذ خمس سنوات. كان وقتها رجلاً طيبًا، أحبني وأحببته، رغم علمه بما أعانيه من صعوبة في الإنجاب. كانت حياتنا بسيطة وهادئة... رحم الله تلك الأيام.

كان لمجدي أخوان: أكرم ونادر.

كان مجدي ونادر يديران محلات والدهما، أما أكرم فكان موظفًا في شركة اتصالات، ويأخذ حصته من أرباح المحلات من أخويه.

نادر فقد زوجته وابنته في حادث سير، لكن الله ألهمه الصبر وربط على قلبه.

أما أكرم فكان متزوجًا من سعاد ولديهما مصطفى، وكانت علاقتي بها طيبة، تصل أحيانًا إلى حد الصداقة.

كان لزوجي عدوٌّ في مجال عمله، يدعى قاسم الأيوبي. كان مجدي يحدثني عنه دائمًا، وعن أساليبه القذرة في تحقيق المكاسب.

في أحد الأيام، تأخر زوجي عن موعد عودته. تأخر كثيرًا على غير عادته. طلع الصباح ولم يرجع. تملكني القلق حتى جاءني اتصال هاتفي يخبرني أن زوجي في المستشفى.

ذهبتُ مسرعة أنا ونادر. كان حال مجدي يرثى له. لم يخبرني أحد بما جرى. كل ما كنت أراه أنه يتألم بشدة. عرفت لاحقًا أن ما حدث له كان مدبرًا من قاسم الأيوبي.

لكن عند عودتنا إلى المنزل، اكتشفت أني أمام رجل آخر. لم يكن مجدي الطيب الذي أحببته وتزوجته، بل صار وحشًا في ثوب بشر.

بدأ يتهرب مني، فظننت أنه يكرهني، أو ربما يعاقبني على ذنب لم أرتكبه. لكني استوعبت الحقيقة في النهاية: الحادث الذي تعرض له أصابه في مواضع حساسة أفقدته رجولته. ولأنه لم يستطع مواجهة ذلك، صنع لنفسه قشرة خشونة قاسية.

ظننتها مجرد قشرة تحجب الألم، لكني أدركت متأخرة أن زوجي صار وحشًا حقيقيًا.

-دنيا... أين أنتِ؟

رأيت فتاة صغيرة، في عمر دنيا تقريبًا، لها جدائل كتلك التي كانت لها. اقتربت منها، كدت أناديها... لكنها لم تكن دنيا.

****

ازداد مجدي وحشيةً وقسوة... ربما لا أبالغ إن وصفته بذئب بشري. أصبح الوقوف أمامه لا يقل خطورة عن الوقوف أمام قطار سريع يدهس كل من يعترض طريقه.

كان يسكب وحشيته حتى على نفسه، إذ امتنع عن متابعة العلاج، فتدهورت حالته الصحية يومًا بعد يوم. لكن ذلك لم يمنعه من المضي فيما كان يخطط له، رغم أني لم أعرف تمامًا ما هو، فمجدي ـ كعادة الرجال ـ كان يرى أن الأمور "المهمة" لا ينبغي للنساء الاطلاع عليها. كل ما عرفته أنه أمر خلافي بينه وبين نادر.

كنت أعلم أن مجدي الجديد لن يسمح لنادر أن يثنيه عما نوى. لكن ما لم يخطر ببالي أبدًا... أن يصل به الحال إلى أن يسجن أخاه.

سمعته يهدد نادر قائلاً إن مصيره سيكون السجن إذا حاول منعه من الانتقام من قاسم الأيوبي. ولم تمضِ أيام حتى دبر له قضية دخل على أثرها السجن. عندها فقط أيقنت أن مجدي لم يعد مجرد رجل قاسٍ... بل صار وحشًا كاملًا.

لم أحتمل ما حدث. شعرت أني أختنق. كان يجب أن أجد من أشاركه همّي. ذهبت إلى سعاد، شكوت لها من طباع زوجي الحادة منذ الحادث، وأخبرتها أن علاقتنا الزوجية متوقفة تمامًا.

لكن ما لم أُبح به لسعاد، وجعلته سرًا بيني وبين أكرم، هو شكوكي في أن يكون مجدي وراء سجن نادر. أجفل أكرم مما سمع مني، ومنذ ذلك اليوم بدأ يراقب مجدي بعين أخرى، ورأى بنفسه ما رأيت: أن أخاه قد تحول إلى وحش كاسر.

ورغم مرضه، رفض مجدي العلاج، مكتفيًا بالمسكنات. تدهورت حالته أكثر، حتى لم يعد يغادر المنزل. صارت عشرته لا تطاق. عندها خطرت لي فكرة قاتلة... الطبيب حذرني مرارًا من ضرورة الالتزام بالجرعات بدقة، وأخبرني أن الزيادة قد تكون بمثابة سم. طردت الفكرة من رأسي في البداية. لكن صعوبة عشرته، وقسوته التي لا تُحتمل، جعلتها تلازمني، حتى وإن أنكرت على نفسي التفكير بها.

في تلك الأثناء ازدادت خلافاته مع أكرم، خاصة بعدما طالب الأخير بنصيبه من الميراث فرفض مجدي. كانت حالته الصحية تسوء بسرعة. شعرت أنها مسألة وقت ليس إلا، لكن الوقت كان يمر ببطء قاتل. قلت لنفسي: أليس من الأجدر أن أجعل قضاء الله وقدره يسبق قليلاً؟ طال تأخر رحمته علينا.

أصبح وجود مجدي مؤذيًا للجميع. لكني كنت أجبن من أن أقرر وحدي. تحدثت مع أكرم كثيرًا، واتفقنا في النهاية على أمر واحد: موت مجدي سيكون رحمة لنا وله.

استجمعت شجاعتي. بدأت أزيد جرعات الدواء، بعلم أكرم. حتى جاء يوم... استيقظتُ فوجدت مجدي نائمًا بجواري. جسست نبضه... كان متوقفًا.

خفق قلبي بشدة، شعرت برهبة وخوف. أليس هذا ما أردته؟ فلماذا أرتجف الآن؟ اتصلت بأكرم، فجاء ومعه الطبيب.

مات مجدي. لكن موته لم ينهِ عذابي، بل ترك فراغًا رهيبًا في حياتي. وجدتني أنا وأكرم نتبادل الحذر. أصبحنا نخاف من بعضنا رغم قربنا، فكلٌّ منا يحمل السر ذاته.

وماذا يفعل رجل وامرأة يخشى كلٌّ منهما الآخر؟ ماذا يفعلان إن لم يثقا ببعضهما؟

يتزوجان.

كان الزواج هو الضمان الوحيد لحفظ سرنا. تعاهد غير منطوق: أن يبقى السر بيننا، حتى لا يبتلع أحدنا الآخر.

****

تزوجتُ أكرم. ترك عمله في الشركة وتسلم إدارة المحلات، بينما فقدتُ صداقة سعاد بالطبع بعد أن صرنا ضرتين. وحدث ما لم أتوقعه... حملتُ بطفل. كان الحمل عندي معجزة؛ فقد نسيت حلم الأمومة منذ زمن بعيد، لكنه عاد ليطرق بابي من جديد. صرتُ حريصة على جنيني، كأنه كنز حياتي.

حلّ شهر رمضان. كنت أنا وسعاد نتبادل العزومات كل عام، لكن هذا العام اختلف؛ فقد كنا ضرتين. مع ذلك قبلتُ دعوتها. لم تكن ودودة معي، وحقّ لها ذلك... فأنا صديقتها التي صرتُ زوجة زوجها. لكني أكلت بشهية. عدتُ في تلك الليلة أتلوّى من ألمٍ فظيع في بطني، أتقيأ كل ما في داخلي حتى فقدت وعيي.

في المستشفى أخبروني أن طفلي مات.

منذ اللحظة الأولى ربطت بين ما حدث وبين سعاد. ألقيتُ عليها ذنب فقدان جنيني. صرت أكرهها... وأكره رؤية ابنها مصطفى. شعرت أن لا عدل في أن يعيش ابنها وأفقد أنا طفلي قبل أن أراه.

وضعت الخطة. تقرّبت من سعاد من جديد، أظهرتُ لها حزني وانكساري. أقنعتها أنني لست سوى امرأة وحيدة بلا أبناء ولا عائلة، وأن زواجي بأكرم كان بحثًا عن فرصة أن أصبح أمًا. نلت شفقتها. طلبت منها أن أعتبر مصطفى ابني الذي لم أنجبه، فسمحت لي بالعناية به.

حتى جاء ذلك اليوم. اصطحبته إلى فيلا كنت قد استأجرتها لهذا الغرض. طلبت منه أن ينزل إلى المسبح، وأنا أعلم أنه لا يجيد السباحة. نزل. سمعت استغاثاته، صرخ باسمي مرارًا... لكني أدرت له ظهري. حتى سكنت صرخاته، وغاب صوته، وفهمت أن كل شيء انتهى.

بعد موت مصطفى، قلت لهم إنه تسلل إلى الماء دون أن ننتبه. ربما صدقتني سعاد، لكنني رأيت في عيني أكرم نظرة اتهام. ثم فاجأني بقراره أن تعيش سعاد معنا في الدار. لم أفهم دوافعه، لكن بداخلي راودتني فكرة شيطانية: ربما أراد أن ينتقم منا كلتينا... كل واحدة منا قتلت له ابنًا.

صرت حذرة، أراقب طعامي وشرابي. لكن شيئًا لم يحدث. حتى طلبت سعاد الطلاق وغادرت حياتنا. بعد فترة، حملتُ مرة أخرى. لم أصدق نفسي. نسيت كل الألم. أنجبتُ "دنيا"... طفلتي الرائعة.

مضت الأعوام. بلغت دنيا الثالثة عشرة. وحدث ما لم نحسب حسابه: خرج نادر من السجن بعد سنوات طوال.

جاء إلينا. بكى بحرقة حين علم بموت أخيه مجدي. سأل عن قبره ليزوره. لم أفهم. كيف يغفر نادر؟ كيف يبكي من سجنه أخوه عشر سنوات؟ أما نحن، فلم نغفر. هل كان نادر ملاكًا... أم كنا نحن شياطين؟

صار وجوده يفضحنا، يذكرنا بحقارتنا. كرهناه. حتى إن أكرم عرض عليه السفر ليبتعد عنا، لكنه رفض. ومنذ ظهوره توترت علاقتي بأكرم، كأنه يحملني مسؤولية ما حدث. لم يقلها علنًا، لكن خيانته لي قالتها نيابة عنه.

بدأ الأرق ينهشني. لم يعد النوم يزورني إلا بالمنومات.

في إحدى الليالي، عاد أكرم متأخرًا من سهراته. كان شجارنا ينتظرنا كالمعتاد. احتدّت أصواتنا حتى أخرج كلٌّ منا ما في صدره. اتهمني صراحةً أنني السبب في موت مجدي. دافعت عن نفسي وذكّرته أننا شركاء، وأنه لا يحق له أن يتنصل الآن. لولاي لظل موظفًا صغيرًا، بلا مال ولا سلطان.

وفجأة... لمحت دنيا واقفة عند باب الغرفة تستمع لكل كلمة. هرعت إليها ونهرْتها. ثم انهرت بين يدي أكرم وبكيت. حاول تهدئتي قائلاً إنها صغيرة، لن تدرك معنى ما سمعته. لكن قلبي لم يطمئن.

تناولت قرصين من المنوم. سألني أكرم بجفاف:

- **"أتنوين الانتحار؟"**

أجبته:

- **-"لا... فقط أريد أن أهرب لبعض الوقت."**

استسلمتُ للنوم. لا أدري كم مرّ من الوقت حتى استيقظت برأسي المثقل. ذهبت إلى المطبخ لأعد قهوة. في طريقي وجدت باب المنزل مفتوحًا. تجمدت. هرعت إلى غرفة دنيا... لم أجدها.

- **دنيا... أين أنتِ؟**
- **أين ذهبتِ وتركتِ أمك وحيدة؟**
- **عودي إلى حضني... إلى حضن أمك الذي يشتاق إليك.**

لكنها لم تعد. مرّت خمسة شهور، ولم تعد دنيا. لم أعد أنا إلى بيتي. ظللت أجوب الشوارع بحثًا عنها، أنظر إلى كل فتاة وأوهم نفسي أنها دنيا... أنني وجدت دنيتي من جديد.

الحكاية العاشرة:

قصة " أزمة ثقة

- **بتحبني**
- **_ لأ**

تغضب هدي وتسحب حقيبتها وتستعد للخروج، يوقفها مازن ويشدها من ذراعها قائلاً

_ يا سيتي بحبك وبموت فيكي بس وبعدين

_ نتجوز

_ اخوكي مش هيوافق

_قولتلك انا ماليش أخوات و لو ليا أخ فأنت عارف إنه مات وعارف مين اللي كان سبب في موته .. انما اللي عايش ده مش أخويا .. ده مجرم .. وأنا مش بحب أفتح السيرة دي وانت عارف بتفكرني بكل اللي حصل

_ صدقيني .. عارف ومقدر

- **بس الناس هتقول اية بتجوزك لية .. أنتِ بقي عندك كل الملايين دي وأنا علي قد حالتي .. تقريباً معدم .. يعني ماينفعش**

_ أنت هتتجوزني انا .. ولا هتتجوز الناس .. يقولوا اللي يقولوا

_ الموضوع يخص كرامتي يا هدي

_ مازن .. انت بتحبني ولا لأ

_ تاني .. قولتلك اني بحبك بس مش هقدر .. طب أنتِ تقدري تسيبي الڤيلا وتعيشي معايا في شقتي البسيطة اللي في روض الفرج

_ أنت عايز تصعبها عليا وعليك .. لية الواحد يكون عنده ڤيلا ويسيبها ويعيش في شقة حتي مافيهاش أساسيات الحياة

_ انا ماعنديش ڤيلا يا هدي

الڤيلا دي بتاعتك أنتِ

_ وانا وانت واحد

يزفر بضيق

_ هدي ..انا بحبك

_ يبقي نتجوز

تظهر على ملامحه علامات الضيق تكمل هدي

_ حتي لو قولتلك موافقة أسيب القيلا وحتي كل الثورة اللي سابها لي بابا

_ لا يا هدي .. ده حقك ماقدرش امنعك منه

_ بس تقدر تسيبني

_ لا ماقدرش

تقترب إليه هدي وترتمي في أحضانه وتقول بصوت هامس

_ يبقي نتجوز

يبتسم مازن في ارتياح وقد حقق ما يرنو إليه منذ زمن

بعد مرور ست أشهر

ذهبتُ إلى قيلا والدي... كانت زيارة ثقيلة على نفسي. لم تطأ قدماي هذا المكان منذ وفاته.

قابلتني خادمة القيلا، فطلبت منها أن تُبلِّغ هدى أن أخاها بانتظارها في الأسفل.

مرت دقائق ثقيلة وأنا أتأمل الصور المعلَّقة على الجدران. وقعت عيناي على صورة أبي... شعرت بعَتْبها الصامت ينهشني. ثم انزلقت نظراتي إلى صورة زوجته، فارتسم على وجهي تعبير ساخر لا إرادي... كيف لا، وقد كانت تلك المرأة العاهرة سببًا في كل ما تلا.

نزلت هدى أخيرًا. لم يكن زوجها برفقتها. قابلتني بمصافحة جافة ووجهٍ بارد، كما توقعت بالضبط. فأنا أعلم أنها لم تغفر لي بعد.

قالت ببرود

_ عايز اية

_ جيت أهني أختي على جوازها.. وأعاتبها أنها لم ماعزمتنيش في فرحها وعرفت زي أي واحد غريب

_ كانت فرحتي كاملة .. وماكنتش عايزة حاجة تنقصها

_ أتمني تكوني سعيدة بعد ما جبتي النصاب و خليته يعيش معاك .. هو صحيح مش كان بيقولك أنه مستحيل يعيش هنا

_ مالكش دعوة .. انا وجوزي أحرار

_ ده طمعان في فلوسك يا هدي وعامل شويتين الكرامة عليكي في الأول بس

_ هو طمعان في فلوسي .. اومال انت طمعان في اية .. اوعي تقول خايف عليا مثلاً

_ لا يا سيتي أنا هكون صريح معاكي أنا فعلاً خايف علي الثروة .. وعارف اللي اتجوزتيه واد نصاب

_ ولا كلمة زيادة .. أنت فاكر كل اللي ناس زيك بتفكر في فلوس .. و لعلمك أنا مأمنه مازن و هعمله توكيل عام ..

كان هذا بالتحديد ما أُريد أن أسمعه وسمعته ثم ابتسمت بهدوء لأختي وذهبت

كان كل شيء يجري مثلما خططت له أنا عمر الرفاعي والأخ الأكبر ل هدي الرفاعي

****

أنا عمر الرفاعي، ابن رشدي الرفاعي، رجل الأعمال المعروف.

كانت حياتي هادئة وجميلة حين عدت من الخارج بعد إنهاء دراستي الجامعية، وبدأت أعين أبي في إدارة شركاته.

لكن في إحدى الليالي المشؤومة قابلتها... أدخلتها حياتي بيدي. كانت جميلة، ناعمة، رقيقة. لم أدرِ أنها ستكون السبب في هدم كل ما بنيت. عرفني بها صديق في إحدى السهرات، تقدمت إليّ ترجوني فرصة عمل بسبب ظروفها الاقتصادية. أعجبتني إنجي كثيرًا، كانت امرأة مثيرة بملامح بريئة هادئة. ظننت أنها تبحث عن يومين تمضيهم معي مقابل بعض المال، لكن كان لها هدف أكبر بكثير.

عملت إنجي سكرتيرة في إحدى شركات أبي، والحقيقة أنها كانت متقنة لعملها. شيئًا فشيئًا بدأ أبي يُقربها منه، حتى عينها سكرتيرة خاصة به، ثم... تزوجها. كانت تلك صفعة لم أحتملها.

حاولت أن أثنيه عن قراره، لكنه كان قد وقع تمامًا في شِباكها. كأنها سحرته، صار كخاتم في إصبعها، تحركه حيث شاءت. كل هذا وهي تحتفظ بوجهها الوديع، وتُخفي سمها خلف ملامحها الرقيقة.

الأدهى أنها استطاعت أن تكسب الجميع في صفها: هدى أختي تقربت منها وأصبحتا صديقتين، حتى الخدم أحبّوها. وحدي أنا لم تستطع أن تخدعني... كنت ما زلت أذكر الليلة الأولى التي رأيتها فيها في تلك السهرة. نعم، أنا من أدخلتها حياة أبي... لكنني أيضًا من سيُخرجها منها.

--

كان يُسمح لإنجي أن تفعل ما تشاء، لا أحد يحاسبها على خروج أو دخول. قررتُ مراقبتها يومًا ما، فوجدت مشاويرها عادية. لكن في يوم لاحق رأيتها تقابل صديقي الذي عرفني بها. لم يكن الأمر غريبًا على أبي أو هدى، فقد كان من معارفها القدامى. لكن بالنسبة لي، كان هذا كافياً ليزيد كرهي لها يومًا بعد يوم.

ثم جاءت الطعنة الكبرى... أعلنت خبر حملها.

أبي طار من السعادة، كأنه استعاد شبابه. هدى باركت لها، وأنا الوحيد الذي شككت في شرعية هذا الحمل. لم أتمالك نفسي... صرخت في وجهها ووجوههم جميعًا، مطالِبًا بدليل أن هذا الطفل أخي بالفعل ليستحق نصيبه في الميراث.

ذهل أبي من وقاحتي، واتهمني بسوء التربية. لكنني تماديت، وصرخت فيه:

- **"الست دي ركبت لك قرون"**

ما زلت أذكر وجهه المصدوم... لحظتها انفعل بشدة وسقط أرضًا. انسد شريان في قلبه، وكانت بداية مرضه.

رغم حزني على أبي، لم يزدني ذلك إلا حقدًا على إنجي. استعاد صحته جزئيًا، بينما كانت هي في أواخر حملها، الذي لم يكن مستقرًا. مرضت كثيرًا، ثم أنجبت طفلها قبل أوانه. خرج إلى الحياة ضعيفًا مريضًا، وبقي في الحضانة فترة طويلة. أما إنجي... فقد ماتت.

شعرت أنها نالت عقابها أخيرًا، لكن بقي الطفل... ذلك الشوكة في خاصرتي. كان يذكرني بها كل يوم، ويفرض نفسه وريثًا لم أقتنع أبدًا أنه يستحق.

وذات يوم، خرجت المربية لسبب ما، وتركته وحيدًا. بدأ يبكي بصوت حاد مزعج. دخلت الغرفة، فرأيت وجه أمه في ملامحه الصغيرة... نفس الوجه الذي حطم حياتي.

من يضمن لي أنه أخي حقًا؟ لا أحد.

لماذا أتركه يشاركني ميراثي؟

اقتربتُ، وضعت يدي على وجهه الصغير... وخنقته.

لم أستفق إلا وقد صمت، لا بكاء، لا حركة... سوى جثّة هامدة بين يدي.

صرخة هدى مزّقت سكون الغرفة. كانت تقف خلفي على الباب، شاهدة على الجريمة. هرع أبي والمربية والخدم... الطبيب جاء، وأمره أبي أن يُسجل الوفاة طبيعية. ثم نظر إليّ بعينين مليئتين بالقسوة وقال:

- **"اخرج من البيت ده."**

بعدها عرفت أنه كتب كل أملاكه لهدى، وحرمني من الميراث.

****

تعرفتُ على مجموعة أصدقاء جدد: مازن، الذي صار لاحقًا زوج أختي، وأليكس صديقتي الألمانية.

كانا يعرفان قصتي كاملة. في إحدى جلساتنا، اقترحت أليكس فكرة شيطانية... قالت لي بابتسامة باردة:

- **"أختك ست، والست مش هيغلبها إلا بالعاطفة. جرب المرة دي تكسب بالحيلة بدل المواجهة."**

كانت الخطة أن أعرّف هدى على مازن، ليوقعها في شباكه. ومن خلال حجّة مختلقة، يمنحَته توكيلًا عامًا يُمكنه من السيطرة على كل الثروة، ثم يعيد إليّ نصيبي الشرعي من الميراث، ويحتفظ هو بنصيبها.

في البداية استهجنت الفكرة. كيف أرسل نصّابًا إلى أختي كي يخدعها؟! لكني سرعان ما استحسنتها، طالما أن النهاية ستكون زواجًا شرعيًا يُعيد الأمور إلى نصابها.

ومع ذلك... لم أكتفِ بخطة أليكس. أضفت إليها بهاراتي الخاصة. هدى تعتبرني شيطانًا، ولن تقبل مني نصيحة. إذن، كان عليّ أن أظهر بمظهر المعارض! أعترض على مازن أمامها، وأتهمه بالنصب، بينما في الخفاء أُعطيه كل مفاتيح شخصيتها.

قلت له: "كُن ثقيلًا معها، اجعلها هي من تطاردك. ارفض الزواج في البداية بحجة أنك رجل لا يقبل أن يتزوج امرأة تفوقه ثراءً... سيُثير ذلك كبرياءها، وستسعى إليك بنفسها."

وفعل مازن كل شيء كما يجب. تزوجته هدى، ثم منحتْه توكيلًا عامًا يدير به كل ممتلكاتها.

اليوم جئت لزيارة أختي. وجدتها حزينة، ترتدي الأسود. نظرت إليها بأسى وتذكرت خيبتي الكبرى... من كان يتخيل أن الأمور ستسير هكذا؟

خرجت من الفيلا، فاتصل بي مازن يخبرني بفرح أن خطتنا نجحت، ولم يبقَ سوى أن يذهب إلى المحامي ليبيع لي نصيبي بعد أن نقل كل أملاك هدى إلى اسمه. كنت أسمع نبرة نشوته، وخفت أن يغدر بي ويبتلع الثروة كلها.

لكن ما لم يخطر ببالي أن القدر نفسه كان يتربص بنا. قبل أن يصل إلى المحامي انقلبت سيارته ومات في لحظتها.

من سخرية الأقدار أن تعود كل الثروة مرة أخرى إلى هدى، بوصفها زوجته ووارثته الوحيدة. مازن كان لقيطًا بلا أهل، فانتقلت جميع ممتلكاته إليها.

اليوم حضرت عزاء مازن. نظرت في عيني أختي، وأخبرتها بالحقيقة:

- **"مازن كان نصاب، حوّل كل حاجة باسمه... لكن القدر مادلوش فرصة."**

لم تصدقني. راحت تُبرر له وتمنحه أعذارًا، قائلة:

- **"الميت مايقدرش يدافع عن نفسه... هو كان يحبني."**

ابتسمت بمرارة... رحم الله مازن، كان ممثلًا بارعًا. أقنعها بتمثيله، حتى بعد موته. والأسوأ أنها بدأت تنفق الأموال في أعمال خيرية باسمه، تطلب من الناس أن يترحموا عليه، وكأنها تكرّس حياته للنقاء الذي لم يعرفه.

هذا النصّاب الذي قضى عمره في الاحتيال، صار بعد موته رجل خير في عيونها!

أما أنا... فقد شعرت أن لعنة الرضيع البريء الذي قتلته تلاحقني. ربما كان أخي حقًا... وربما ظلمت إنجي.

الحكاية الحادية عشر:

قصة " زواج سعيد "

عام 1994 في أحدي قري الصعيد

تُزعجه أصوات الطبول والغناء... إلى أين يذهب وقد امتلأت القرية كلها بالزينة ومظاهر الاحتفال؟ الكل سعيد باستثنائه هو.

أصرت سلطانة على إقامة حفل زفاف كبير، وكأنها فتاة بكر تتزوج لأول مرة! كأنها لا تملك ابنًا يافعًا بلغ السادسة عشرة.

ظلّ يسأل نفسه:

أحقًا أمه لا تدرك أنها تُهين رجولته بهذا الزواج؟

عبثًا حاول هو وجده أن يثنياها عن الفكرة، أن يذكّراها بزوجها الراحل وبأنه — ابنها — يمكن أن يكون رجلها الوحيد. لكنها لم تُصغِ، سلطانة تفعل ما تشاء، لا تعبأ بمراهق أو أب ضعيف.

ظنّ أنه قد يردعها إن اختفى عن البيت ثلاثة أيام متواصلة، لكنها لم تتراجع، بل ازدادت عنادًا، وصاحت في وجهه أن هذا حقها الشرعي. ثم أتمت زواجها، وأصرت على حفل زفاف ضخم يظل حديث القرية، وكأنها تتعمّد إغاظته.

ظل قلبه يحترق بالنار حتى انتهى العرس، وظنّ أنها ستخمد. لكن حين رحل المدعوين وخلا الدار للعروسين، قفزت إلى ذهنه فكرة قاتلة: أمه الآن في أحضان رجل غريب.

تذكّر مشهدًا من أحد الأفلام الإباحية التي شاهدها سرًا مع ابن عمه، واستبدل صورة البطلة بوجه أمه. الفكرة جعلته يختنق من الاشمئزاز. قرر أنه لن يبيت ليلة أخرى في هذا المنزل.

فتح الباب، خرج لا يعرف وجهته. تمنّى لو يذهب إلى قبر أبيه، لكن المقابر مغلقة في هذا الوقت. بعد تفكير طويل لم يجد ملاذًا سوى بيت عمه. حين وصل، كان الفجر على وشك الأذان. استقبله عمه بحفاوة، مدركًا صعوبة أن يعيش فتى في سن البلوغ تحت سقف واحد مع زوج أمه. أعدّ له غرفة صغيرة في الطابق الأرضي، وأخبره أنه بات ابنه الثالث.

أقام عند عمه، ولم يعد يزور بيت والدته إلا لمامًا، فقط ليلتقي بجده. كان يتحيّن أوقات غياب عبدو الطحّان — زوج أمه — كي لا يضطر لملاقاته. أمه تحاول فتح أحاديث ودّية معه، لكنه كان يغلق كل الأبواب، كأنه يبعث لها رسالة واضحة:

لا يمكنك أن تحبّيني أنا وذاك الرجل معًا... إما أنا أو هو. وقد اخترتِه أنتِ.

لكن القدر رتّب له مصادفات ليرى بعينيه كيف تعامل سلطانة زوجها الجديد. لم تكن سلطانة التي يعرفها. لم يحدث مرة أن رفعت صوتها على صوت عبدو، على عكس ما كانت تفعله مع أبيه.

طالما سمعها تتذمّر، تقارن نفسها بنساء القرية المحمّلات بالذهب، وتلعن حظها في رجل لم يملأ يديها. طالما صرخَت في وجه أبيه وهو يلوذ بالصمت. كان يتمنى أحيانًا أن يصفعها بدلاً عنه.

لكن كل هذا تبدّل الآن. ما السر؟ هل لأن عبدو غني وأبوه فقير؟ أم لأن عبدو رجل قوي فرض احترامه، بينما والده كان ضعيفًا؟

كلما فكّر أن والده رجل ضعيف، ضاق صدره حتى يكاد يختنق. كان يقتل قلبه هذا الشعور. فكره ضعف أبيه... وكره النساء جميعًا.

لكن كراهيته للنساء لم تمنعه من الوقوع في حب أميرة.

أميرة... ابنة عمه. تصغره بعامين، لكنها تكبره بقلب يسع الدنيا. كان اسمها يليق بها، فأخلاقها وطباعها كالأميرات: رقة وعذوبة، جمال هادئ، عينان ناعستان، وصوت ملائكي قليل الكلام. شعر أن قلبها الصغير يحتوي حنان العالم كله، وأنه لا يريد سوى أن تحتويه هو.

كانت تبدو بجواره كعصفورة، بينما هو يشعر نفسه كوحش كاسر.

فكّر أن يكتب لها جوابًا غراميًا مثل أفلام الأبيض والأسود، لكنه تراجع. إن وقع الجواب في يد عمه، لبدت مروءته رخيصة.

اختار أن يبرهن رجولته بطريقة أخرى: صار يجلب كل طلبات المنزل، حتى تمدحه زوجة عمه أمام أميرة. وكانت خطته تنجح؛ دائمًا ما كانت تُقارن بينه وبين خالد ابنها الكسول، النائم أبدًا.

ثم اشترى جهاز راديو صغيرًا من مصروفه الخاص. غرفته في الطابق الأرضي تقع تمامًا تحت غرفة أميرة. كان يتعمّد أن يرفع الصوت حين تُغنّي أم كلثوم: "حيّرت قلبي معاك... وأنا بداري وأخبّي..."

أو حين يشدو عبد الوهاب: "خايف أقول اللي في قلبي... تتقل وتعند ويايا..."

موهمًا نفسه أن أميرة تسمعه... وتفهم رسائله الخفية.

****

2002

ماتت أمه، لا يعلم لماذا يشعر بكل هذا الحزن، فهو يكرهها ويكره جميع النساء معها. كان يقف في عزائها مع زوجها الذي كان من قبل يرفض أن تجمعه مناسبة معه، لكن اليوم مختلف فلا

مفر من المواجهة. وقف بجانبه يتلقى عزاء أمه، ود لو أنه لم يحضر من الأساس، لكنه حضر مكرهًا من أجل كلام الناس.

بعد انتهاء مراسم الدفن والعزاء عاد وحيدًا إلى غرفته في بيت عمه. أراد أن يبكي بشدة، أراد أن يصعد إلى غرفة أميرة ويخبرها بحزنه الذي أخفاه عن الجميع. يعرف أنه يكره أمه ويكره كل النساء، لكنه أحب أميرة وود أن يبكيها في حضنها، أن يظهر ضعفه كاملًا أمامها، أن تكون هي أمه الثانية وتمنحه حنانًا حرمته منه أمه الأولى.

في اليوم التالي التقى بأميرة على السلم، نظرت إليه بحنان وعزته قائلة:

-"البقية في حياتك."

رغم أن هذه الكلمات سمعها من كل أهل القرية، إلا أنها خرجت منها مختلفة. شعر أنها تطبطب عليه بالكلمات، وكانت عيناها حين قالتها كأنها تحتضن حزنه كله. سيقول الجميع عنه إنه جن لو أخبرهم أن عينيها احتضنته في تلك اللحظة، وهل للعيون قدرة على الاحتضان والاحتواء؟ عينا أميرة فعلتا.

إحساسه أن أميرة تبادله نفس الشعور جعله يتجرأ ويتقدم لخطبتها رسميًا بعد أربعين والدته. كان واثقًا أن والدها سيوافق، فهو ابن عمها وأولى بها من أي غريب لا يعرفه، وبالفعل وافق عمه على خطبتهما.

كانت أميرة اختيارًا موفقًا له، ليس لأنه يحبها فقط، بل لأن طباعها تخالف طباع أمه. فهي قليلة الحديث، صوتها منخفض، وستكون بالتأكيد فتاة مطيعة له. لن تكون سلطانة جديدة، ولن يسمح لها أن تكون كسلطانة، أو أن يكون هو كأبيه.

بعد عام تزوجها وعاشا في بيت أبيه. ظن أن حياته مع أميرة ستصبح مثل الجملة التي تُكتب في نهاية الأفلام: "ثم عاشا بسعادة إلى الأبد." لكن السعادة لم تدم طويلًا. بدأت الخلافات تنشأ بينهما، وكأنه تفاجأ بأميرة جديدة، أميرة يمكن أن يكون لها رأي يخالف رأيه، أميرة يمكن أن تعارضه وتخبره أن هذا الوضع لا يناسبها.

في أحد الأيام اشتد الخلاف بينهما. تجرأت أميرة وأعلت صوتها عليه، فتراءت له صورة والدته سلطانة وهي تعلي صوتها على أبيه. فعل ما كان يود فعله وقتها ولم يقدر، فصفع أميرة على وجهها وهو يشعر أنه يصفع والدته. لم يعِ ما حدث إلا حينما ذهب لعمه وأخبره أن ابنته تطلب الطلاق. بدأ يدرك أنه قد يفقد حبيبته، فأقسم لعمه أنه لن يعيد فعلته، وأنها هي التي استفزته، لكنه يحبها ولن يكررها مرة أخرى. كان يعرف أن عمه لن يوافق على طلب ابنته بالطلاق، وأنه سيعيدها إليه، وفعلاً عادت. أقسم لها أنه لن يكرر فعلته مرة أخرى.

مرت الأيام والسنين. عاد وكرر فعلته مرة بعد أخرى، ثم يعتذر ويعلل ذلك بأنه كان متعبًا أو أنها هي التي استفزته. لكنه لم يخبرها السبب الحقيقي: أنه يخشى أن تتحول إلى سلطانة جديدة، ويخشى أن يكون ضعيفًا مثل أبيه.

عاودت هي طلبها للطلاق، لكن لم يكن لأبيها أو أخيها أن يوافقاها على طلبها. حتى أيقنت أنه لا مفر من العيش معه. أصبحت تتجنب كل ما يمكن أن يفتح بابًا للخلاف بينهما، تتعامل فقط كمديرة للمنزل، وقررت الصمت إلى الأبد.

اشتاق هو إلى حبيبته القديمة. لم تعد أميرة كما كانت، لم تعد عيناها تحتضنه، هي فقط بجانبه لأنها مضطرة، تنفذ أوامره اتقاءً لشره، وتهتم به من باب الواجب فقط.

****

عام 2020

مر على زواجهما سبعة عشر عامًا. نجح مصطفى في غايته: لم تصبح أميرة كأمه سلطانة، ولم يصبح هو كأبيه، لكنه في أثناء ذلك فقد حبيبته.

شعر أن تلك الحياة غير عادلة. حرمته أمه الأولى وحرمته أمه الثانية.

الحكاية الثانية عشر:

قصة " حيرت قلبي "

كانت الساعة تقترب من الثامنة، وكان من المفترض أن يكون في المنزل منذ ساعتين على الأقل. كانت عادة تأخيره بعد موعد عمله تثير أعصابها كثيرًا. حاولت الاسترخاء، وانشغلت في تحضير العشاء. سمعت صوت باب الشقة يُفتح، كان أكرم زوجها، عائدًا من عمله الذي يُفترض أنه انتهى منذ ساعتين. كان متجهّم الوجه وصامتًا. دلف إلى غرفة النوم مباشرة دون أن يُلقي عليها التحية، متجاهلًا وجودها.

شعرت حنان في تلك اللحظة أن زوجها يُهمّش وجودها في حياته، وأنها لا تعني له شيئًا. لا فرق بينها وبين أي قطعة أثاث في البيت.

في محاولة منها للثأر لكرامتها، قررت أن تتجاهل وجوده هي الأخرى. جلست أمام شاشة التلفاز تبحث عن قناة روتانا كلاسيك، فقد كان موعد إذاعة حفلة أم كلثوم يقترب.

كانت تترقّب أن يأتي أكرم من تلقاء نفسه ويحكي لها ما به ويعلّل سبب تأخّره عنها، فهي كانت قد أخبرته في الأيام الماضية أن عادة تأخيره عن المنزل وعدم معرفتها بمكان تواجده أمر يزعجها جدًا، وتوقعت أن يكفّ عن عادته تلك بمجرد أن تُصارحه بأنها تتأذى، لكنه تمادى في ذلك.

خرج أكرم من الغرفة، وكان يبدو كما لو أنه يهمّ بمغادرة المنزل. بدأ الدم يغلي في عروقها، ولم تستطع أن تتمالك نفسها. سألته بعصبية: "إلى أين ذاهب؟" لكنه لم يُجبها، كأنها غير موجودة، وخرج.

استشاطت غضبًا، وشعرت وكأنها نكرة في حياة زوجها، وعزمت على الانتقام منه. فكّرت أن تخرج هي الأخرى، ولمَ لا؟ لماذا هو فقط من يتمتع بهذا الحق ويستطيع أن يغادر في أي وقت؟ لكنها لم تجد في نفسها الجرأة على الخروج دون إذنه، ولم تكن تستطيع أن تتوقّع رد فعله إن علم بذلك.

عدلت عن الفكرة، وقررت أن تُحضّر حقيبة ملابسها، وعندما يأتي ستخبره بأنها استاءت من هذا الوضع وأنها ذاهبة إلى بيت أهلها حتى يقدّر قيمتها. وبالفعل أحضرت الحقيبة ووضعتها أمام باب الشقة حتى يراها إذا دخل، وتُعلن بذلك غضبها. ثم جلست تنتظر.

كانت حفلة أم كلثوم على وشك البدء. سألت نفسها: لماذا، منذ زواجها، حصرت حياتها كلها في أكرم؟ أصبحت حياتها كلها تدور حوله فقط. لماذا لا تعمل؟ لماذا لا ترى أصدقاءها؟ لماذا ليس لها عالم مستقل عن أكرم؟ أكرم نفسه لديه عالمه الخاص: عمله، أصدقاؤه، أما هي فلم تكن سوى جزء صغير من عالمه. بينما هو كان كل عالمها. عندها اتخذت قرارًا بأنها ستبدأ عملًا خاصًا بها، وتجدد علاقاتها بأصدقائها التي انقطعت بعد الزواج.

بدأت أم كلثوم في الغناء: "وبدي أشكيلك من نار حبي، بدي أحكيلك على اللي في قلبي..."

نظرت حنان إلى الساعة، فوجدت الوقت قد تأخر. قررت أنها ستطلب الطلاق بمجرد عودة أكرم. لم تعد تتحمّل هذه الحياة، ولا أن تكون آخر من يعلم ما يحدث في حياة زوجها. شعرت برغبة في البكاء لكنها قاومت دموعها. لا تريد أن تكون ضعيفة مرة أخرى.

فتحت هاتفها وقررت أن تحظر زوجها من جميع مواقع التواصل الاجتماعي. لم يكن لهذا الفعل معنى كبيرًا، فهي تعيش معه في نفس المنزل وتحتك به يوميًا، لكنه لم يكن أكثر من رغبة في الاحتجاج على معاملته لها.

سمعت حنان صوت الباب يُفتح، كان زوجها أكرم قد عاد. لاحظت علامات الضيق على وجهه، دخل إلى غرفة النوم دون أن يُلقي عليها التحية أو يُخبرها بشيء، متجاهلًا وجودها.

آلمتها علامات الضيق على وجهه، فقد كانت تود أن تعرف ما به. دخلت إليه غرفة النوم وسألته...

_ تأكل

يجيب بعدم اهتمام

_ مش عايز

خرجت من الغرفة وهي ترتجف من شدّة الغضب، شاعرة بأن كبرياءها قد طُعن. لن تسأله، ولن تهتم بحاله ثانية. عادت إلى جلستها أمام شاشة التلفاز، تستمع إلى أم كلثوم:

"يا قاسي بص في عنيا وشوف إيه انكتب فيها، دي نظرة شوق وحنية ودي دمعة بداريها."

مضت عشر دقائق أخرى، وبدأ القلق يتسرّب إلى قلب حنان على زوجها. ماذا عساه أن يكون قد حلّ به؟ لو فقط يتحدّث إليها ويخبرها.

ذهبت مجددًا إلى غرفة النوم لتسأله إن كان يود أن يأكل، لكنها في الحقيقة كانت تود أن تعرف ما يدور في عقله. لم تجد حجّة لفتح الحديث سوى الطعام.

دخلت وسألته:

"عايز تأكل؟"

كان أكرم مستلقيًا على السرير وقد بدا أكثر هدوءًا. رقّ صوته، وبنبرة حنونة منخفضة اعتذر لها عن أسلوبه معها، وعن تأخيره وخروجه من المنزل، وأخبرها أنه مضغوط بسبب مشاكل في العمل، ويحتاج فقط لبعض الوقت بمفرده حتى يهدأ ويصبح لديه القدرة على الحديث والإجابة عن أسئلتها.

نظرت حنان في عينيه، ورأت ملامحه المتوسلة إليها، فرأته كطفل كبير. كيف لها أن تغضب منه وتتركه؟ نسيت قرار الطلاق، ونسيت حقيبة ملابسها الموضوعة بالخارج، وتراجعت عن قراراتها في تغيير أسلوب حياتها. استسلمت بين ذراعيه، بينما صوت أم كلثوم ينساب من التلفاز في الخلفية:

"خاصمتك بيني وبين روحي، وصالحتك، وخاصمتك تاني، وأقول أبعد، يصعب عليّا روحي تطاوعني."

الحكاية الثالثة عشر

قصة " أم ابنتي "

اليوم عيد ميلاد تلا، ستُكمل سبع سنوات.

كانت حنان كعادتها تودّ الاحتفال بهذا اليوم مثل كل عام، لكن هذا العام بالتحديد كان مختلفًا؛ فمنذ أشهر فقدت حنان زوجها الذي أحبّته في حادث سير. كانت صدمة شديدة هزّتها من الأعماق، جعلتها غير قادرة على أداء أبسط مهامها اليومية. تكبّدت الشركة التي تعمل بها خسائر كثيرة بسبب شرودها، وفقدت الكثير من وزنها.

أما عن مهمتها كأم، فكانت الأصعب على الإطلاق.

باتت حنان تنغمس يوميًا في سلسلة من الأفكار لا تستطيع الهروب منها. تشرد طويلًا، تفكّر في معنى حياتها بعد موت زوجها وحبيبها الغالي: كيف ستتمكن من رعاية تلا وحدها وهي تقترب من سن الخمسين؟ لم تكن قادرة على التركيز في أي شيء، حتى وجود ابنتها الصغيرة كان يشكّل عبئًا عليها.

بدأت تدبّر العديد من الحيل لتُبعد تلا عنها قدر ما تستطيع. أرسلتها في كل رحلة مدرسية، واشتركت لها في كل نشاط يمكن أن يملأ وقتها بعيدًا عنها، بشرط ألا يتطلب أي مساعدة من الأم. وفي الأوقات التي كانت تلا تغيب فيها، كانت حنان تنفجر في بكاءٍ مرير، مستغلة وحدتها.

واليوم، يوم عيد ميلاد تلا، كانت حنان ترغب في أن تصنع لها حفلة كبيرة كما اعتادت. لكنها لم تعد تملك طاقة لأي شيء.

وأتاها ذلك الخاطر الذي لطالما رغبت في تجنبه، حتى حدث ما حدث... عزمت حنان أخيرًا على إعادة تلا إلى أمها الحقيقية.

****

استيقظت نادين في الصباح باكرًا.

كان يومها مليئًا بالمهام، وهذا أمر طبيعي فقد اقترب موعد خطبتها بعد أيام قليلة. تبلغ نادين من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا ظلّت خلالها عزباء؛ لم يعجبها أيٌّ من الرجال الذين قابلتهم، وكانت تفضّل عملها واستقلالها المادي على الدخول في زيجة فاشلة.

حتى قابلت تيم.

كان تيم الرجل الذي تحلم به: متفتح، واعٍ، مثقف، ومحبّ للإنسانية. وربما كان هذا هو ما جعله لا إنجابيًّا. فهو يرفض تمامًا إنجاب طفلٍ إلى هذه الحياة كي لا يُلقي به إلى المعاناة. ثم إنه لا يحب الأطفال، أو هكذا يقول. لكن نادين كانت تشعر أن الأمر أعمق من ذلك؛ أن فقدانه لزوجته الأولى أثناء ولادتها لطفلهما الأول، ثم موت الطفل نفسه، جعله لا يرغب أبدًا في تكرار تلك التجربة.

كان يبرّر زواجه الأول وإنجابه بأنه كان شابًا صغيرًا لا يفقه الكثير في الحياة، وأنه استجاب لضغط وإلحاح والديه. ولو عاد به الزمن مرة أخرى لاختار ألّا ينجب. "فما ذنب طفل بريء أن يأتي إلى هذه الحياة ويعاني؟" هكذا كان يقول. لكن نادين كانت تفهم كلامه على نحو آخر: لو عاد به الزمن لكان اختار ألّا يُنجب كي لا يفقد زوجته وطفله، وكي لا يمر بتلك التجربة الأليمة مجددًا.

تذكرت نادين حديثها مع أختها نانسي، وهي أم لطفلتين، حين سألتها: "هل تودين حقًا أن تحيي بلا أطفال؟"

لقد فكرت كثيرًا في سؤال أختها الكبرى، لكنها لم تكن ترغب في فقدان تيم. فالرغبة في طفل تعني خسارة تيم. كان الاختيار صعبًا، لكنها اختارت تيم. وربما، في داخلها، فكرت أنها بعد الزواج قد تستطيع تغيير رأيه، أو ربما تحمل يومًا "بالخطأ"... خطأ مقصود، ثم تضعه أمام الأمر الواقع.

كانت تلك الأفكار تسيطر عليها وهي تنتظر أختها نانسي كي تذهبا معًا لشراء مستلزمات الخطبة.

دقّ جرس الهاتف. رقم غير مسجَّل. ترددت نادين قليلًا، ثم أجابت.

كان صوت سيدة لم تتعرف عليه في البداية. لكن السيدة كانت تعرف نادين جيدًا، هذا واضح من المعلومات التي ذكرتها عنها. ثم عرّفت نفسها بأنها حنان، جارتهم القديمة، زوجة الطبيب النسائي إلياس وليم. تذكرت نادين حنان بصعوبة.

أخبرتها حنان أنها في المستشفى، وأن ابنتها مريضة وفي غرفة العمليات، وأنها تحتاج إلى نادين. لم تفهم نادين الرابط بينها وبين حالة ابنة جارتها؛ فهي ليست طبيبة، ويومها مزدحم ووقتها ضيّق. لكن صوت المرأة المليء بالرجاء أثّر فيها كثيرًا، فعزمت أن تذهب إليها، على أن تغادر سريعًا لتنجز ما تبقى من مهام يومها.

في تلك اللحظة دقّ جرس الباب.

كانت المنتظَرة: نانسي. أخذتها نادين معها، وذهبتا إلى المستشفى.

****

بعد المرور في العديد من ممرات المستشفى وصلت كلٌّ من نادين ونانسي لرؤية حنان. أخذت نادين بعض الوقت لتتعرّف عليها؛ فقد ازداد وزنها، وكسا وجهها بعض التجاعيد، وانتشر الشعر الأبيض بين خصلات شعرها.

بدأت حنان تتحدث عن حالة ابنتها. كانت تتلعثم في الكلام، ويتسابق توترها وعصبيتها مع كلماتها، مما جعل من الصعب على نادين أن تفهم ما تقول.

لكنها في النهاية استنتجت أن ابنتها في حاجة إلى متبرع لإجراء عملية خطيرة، وأن هذا المتبرع يجب أن تتوافق أنسجته مع أنسجة الطفلة. ومع ذلك لم تفهم نادين ما علاقة كل ذلك بها.

استجمعت حنان شجاعتها، نظرت مباشرة في عيني نادين، وقالت

_ محتاجين أنسجة حد يكون قريبة يفضل لو كان الأم او الأب

_ اه .. فهمت لكن برضو أية علاقة ده بيا

_ الأب مات من كام

صمتت حنان برهة، ظلت نادين تسمعها في ترقب ثم أكملت حنان

_ وأنت الأم

صدرت ضحكة عن نادين عفوية وفتحت نانسي فاها غير مستوعبة ما تقول

ثم قالت نادين

_ بنتي ازاي .. أنا ماتجوزتش وماخلفتش .. وبعدين اللي فهمته أنها بنتك

حاولت حنان التماسك وأكملت

_ فاكرة من سبع سنين لما كنا جيران وحكيتلي أنك سمعتي عن تجميد البويضات وأنك حابه تعملي كدة وقتها اديتك رقم عيادة جوزي عشان تروحي عنده وتعملي تجميد بويضات

ارتفع ضغط الدم في عروق نادين واحمرت وجنتيها، يبدو عليها أنها بدأت تفهم ما تلوح إليه حنان

أكملت حنان بصوت مخنوق وهي تكاد تبكي

_ أنا و جوزي في بداية جوازنا كان عندنا مشاكل في الخلفة هو بالتحديد وفضل فترة طويلة يتعالج ولما هو خف، كنت كبرت أنا. . في الوقت اللي هو كان قادر فيه يجيب ولاد لكنه أقنعني إني أقدر اخلف عن طريق الحقن المجهري ماكنتش فاهمة أزاي لكن بعدين عرفت أنه حقني ببويضات مريضة من البنات اللي بتعمل تجميد بويضات و أقنعني إني هكون أم للطفل لأني هحمل فيه وأربيه في البداية اعترضت. . لكن لما فكرت في وجهة نظره أن دي آخر فرصة لينا نخلف و أننا مش هنأذي البنت دي لأننا مش هنحرمها من طفل ماشوفتهوش ولا هتحمل فيه .. وهيكون الطفل ابننا فعلا مش زي التبني .. وانا ضعفت ووافقت

أجهشت بعدها حنان في البكاء

كانتا نادين ونانسي في حالة صدمة

ثم صرخت نادين بها

_ أنت وجوزك مجرمين .. أنا هبلغ عن جوزك وهخليه مايشتغلش دكتور طول عمره

قالت حنان بصوت مبحوح

_ جوزي مات من كام شهر

نهضت نادين كأنها سترحل

لكن ركعت أمامها حنان وقالت وهي ممسكة بيدها

_ أنا وجوزي غلطنا بس البنت مالهمش ذنب وهتموت

_ أنت واحدة أنانية

صرخت نادين في وجهها وقد أفلتت يديها بعنف، ثم اندفعت خارج الغرفة بخطوات مرتبكة. كانت في حاجة ماسّة لأن تستوعب ما سمعته، فما قيل للتو زلزل كيانها كله.

تابعتها نانسي مذهولة، لا تكاد تصدّق ما خرج من فم حنان. بدت الكلمات كأنها صفعة على وجهيهما معًا، كلمات ثقيلة لم تحتملها أذن نادين، فهربت منها قبل أن تلتهمها الصدمة.

مرّ يومان كانت نادين خلالهما داخل منزلها، جالسة تفكر في حياتها التي انقلبت رأسًا على عقب. هاتفها لا يتوقف عن الرنين؛ تتصل بها حنان مرارًا وتكرارًا، ويتصل بها تيم، وكذلك أختها، لكنها لا تستطيع الإجابة.

ماذا تفعل الآن؟ كانت تريد أن تصبح أمًّا، لكن ليس بهذه الطريقة. هل يجب أن تخبر تيم، أم تتجاهل ما عرفته وتكمل حياتها كأن شيئًا لم يكن؟

نظرت حولها تتأمل منزلها؛ أبيها وأمها قد توفيا، وأختها الوحيدة متزوجة ولديها أطفالها. أليس من الأفضل أن يكون لديها طفلها هي؟ لكن ماذا ستقول للناس والجيران وزملائها في العمل؟

دق جرس الباب... كانت نانسي هي الزائرة.

فتحت لها نادين، فظلت نانسي تتفحصها. وجدت أختها بعد يومين فقط وقد فقدت كل نضارتها، وأصبح وجهها شاحبًا جدًا. لم تكن تعلم نانسي من أين تبدأ الحديث، فسألتها عن تيم:

ـ تيم بيدوّر عليكي ومستغرب ليه مش بتردي عليه.

صمتت نادين وتنهدت بحزن، فأكملت نانسي:

ـ انت ناوية تقوليله؟ طب إنت مصدقة أصلًا اللي اسمها حنان دي؟ لما روحنا المستشفى كان شكلها مش طبيعي.

ـ إيه اللي يخليها تكذب يعني؟

ـ طب ما تعملي تحليل DNA.

ـ طب ولو طلعت بنتي بجد... هاعمل إيه؟

لم تجد نانسي ردًا فآثرت الصمت. ثم أكملت نادين حديثها بصوت متهدج:

ـ انت عارفة يعني إيه يبقى عندي بنت عمرها سبع سنين؟ مين البنت دي؟ أنا ماعرفهاش... ما شلتهاش زي باقي الأمهات في بطني، وماحضنتهاش لما اتولدت، وماشوفتهاش وهي بتمشي أو وهي بتقول "ماما" لأول مرة. ما اخترتش اسمها ولا مدرستها، ولا أعرف هي بتحب تأكل إيه أو بتكره إيه... أنا ماعرفش أي تفاصيل الأمهات يعرفوها عن بناتهم. وفجأة أبقى أمها!

ـ بس البنت زي ما فهمنا تعبانة ومحتاجة تعمل عملية في أسرع وقت، وإنت سايبة الموضوع معلّق. على الأقل شوفي إذا كنتي هتقدري تتبرعي ليها ولا لأ.

أخرجتها جملة نانسي الأخيرة من حالة الجمود التي كانت عليها. هناك طفلة مريضة وبحاجة لمساعدة، وهي الوحيدة القادرة على مساعدتها. يجب أن تهب لإنقاذها، ثم تتجاوز صدمتها كيفما أرادت. لكن... ماذا عن تيم؟ ماذا عن حفل الخطبة؟

وأثناء شرودها ذاك، دق جرس الباب مرة أخرى. فتحت نانسي لتجد أن الطارقة هي حنان، وقد ازدادت هيئتها سوءًا.

كانت حنان تعرف مكان سكن نادين، فقد كانت جارتها قبل أن تنتقل مع زوجها.

ـ تلا تعبانة ومحتاجة مساعدتك... إنت ما رديتيش عليّا.

هكذا فتحت حنان الموضوع دون مقدمات. انتبهت نانسي إلى أن حنان تبدو هزيلة جدًا، وكأنها لا تتناول الطعام. كما أن عينيها أوضحتا أنها لا تنام جيدًا.

أما نادين، فكلما تسمع صوت حنان يتملكها الغضب، وتتذكر ما فعلته هي وزوجها بها. همّت بالصراخ في وجهها:

ـ وإنتِ لما خدتي حتة من جسمي من غير إذني عشان يبقى عندك طفلة زي تلا... ما فكرتيش في حد زيي؟ البنت اللي تعبانة دي مسؤوليتي أنا ولا مسؤوليتك إنتِ؟

ـ أنا عارفة إني غلطانة، وإن اللي عملناه أنا وجوزي غير أخلاقي... بس الواقع دلوقتي إن بنتك بتموت.

ـ وليه تبقى بنتي أنا بالذات؟ ما ممكن تبقى بنت أي مريضة تانية.

ـ عشان أنا اللي اقترحت انه تكوني أنت ... أنت ذكية وشاطرة وماعندكيش تاريخ مرضي في العيلة. كان عايز بنته تورث جيناتك.

ـ والله... وكمان كان بينقّي من جينات مرضاه!

لم تكن نادين لتكمل جملتها حتى وقعت حنان على الأرض مغشيًا عليها.

كانت نانسي تتوقع أن يحدث هذا، فالمرأة بدا عليها الإجهاد الشديد. أما نادين فظلت متجمدة أمام المنظر، لكنها شعرت بعطف ناحيتها. هذه المرأة تتألم أيضًا، وهدأ ذلك من حدة غضبها.

فكرتا نادين ونانسي في طريقة لإفاقتها. قامتا بحملها ووضعها على الأريكة. وأثناء ذلك كان الباب مفتوحًا، فقد نسيتا غلقه حينما رأتا حنان.

دخل من الباب خطيبها تيم وقد انتابه القلق من غياب خطيبته نادين. غير أن ما وجده أدهشه، فتساءل عن هوية المرأة المريضة التي تساعدها نادين ونانسي:

- هي مين دي يا نادين؟ هي تقرب لك إيه؟

نظرت نادين مدهوشة إلى تيم، وتبادلت النظرات مع أختها نانسي. ثم شعرت أن هذا هو الوقت المناسب لتخبره، فقالت بهدوء مثقل:

- دي تبقى أم بنتي

****

استمع تيم للقصة التي روتها له نادين، بينما كانت نانسي تساعد حنان على استرداد وعيها.

لم يكن تيم ليصدق نادين لولا أنه رأى حنان بنفسه واستمع إلى القصة منها.

أسئلة كثيرة اجتاحت عقل تيم؛ فقد كان ينوي الزواج بفتاة لم يسبق لها الزواج أو الإنجاب، والآن علم أن لديها طفلة عمرها سبع سنوات. فكر قليلًا: كيف ستكون الحياة بجانب طفلة صغيرة ليست ابنته؟ هل يمكن أن يربيها معها؟ لم يستطع تقبّل تلك الفكرة.

لكنه نظر إلى نادين، فكان يصدق أن لا يد لها في الأمر، وأنها لم تعلم بوجود الطفلة إلا منذ يومين فقط. نادين لن تخدعه. ومع ذلك، فإن وجود الطفلة كان مزعجًا له تمامًا. لكن الطفلة مريضة الآن، وسيكون من القسوة أن تُترك على هذا الحال.

ملّ من التفكير وسأل نادين:

- ناوية تعملي ايه؟

قالت نادين موجهة حديثها للجميع:

- أنا هساعد البنت دي وهتبرع ليها عشان تخف، لكن مش هاتبقى بنتي ومش هربيها. إنتِ أمها يا حنان، وهي ما تعرفش غيرك، وهيفضل الوضع كده. أنا بس هساعدها تخف، وبعدها هكمل حياتي مع تيم عادي. وإنت يا حنان هتهتمي بيها زي ما كنتي بتعملي. وده الأفضل لينا كلنا.

أجّلت نادين موعد خطبتها، وذهبت بالفعل إلى المستشفى برفقة نانسي، وأحيانًا تيم. لكنها لم ترَ الطفلة.

كانت خلال تلك الأيام على تواصل هاتفي مع حنان لتطمئن على حالة الطفلة، التي بالفعل بدأت تتحسن وستخرج من المستشفى قريبًا. لكن بدا من صوت حنان أنها ليست بخير، إذ كانت تلوم

نفسها على الحادث الذي أصاب الصغيرة، وتشعر أنها أم مقصّرة. وأخبرتها أيضًا أن نوبة اكتئاب قد عاودتها.

أخبار حنان عن الطفلة كانت تطمئن نادين، لكنها في الوقت نفسه شعرت أن حنان ليست على ما يرام، وكأنها تريد أن تقول إنها لم تعد قادرة على الاهتمام بالطفلة.

أما تيم، فكان متفهمًا لأبعد مدى، حتى إنه قبل بتأجيل الخطبة إلى أن تطمئن نادين على تلا. والآن يقترب موعد الخطبة، ويجب على نادين أن تفي بوعدها لتيم عندما تشفى الطفلة: أن تبدأ حياتهما الجديدة من دون وجود تلا.

لكن نادين بدأت تشعر بثغرة في قلبها؛ فهي تعلم أن لها طفلة، ولا تستطيع أن تحيا وكأنها لا وجود لها.

قالت فجأة لتيم أثناء حديثهما عن تحضيرات الخطبة:

ـ أنا عايزة أشوفها.

نظر لها تيم متعجبًا:

ـ تقصدي تلا؟

ـ أيوة... إمبارح وأنا واقفة قدام المراية، أخدت بالي من الحسنة اللي في وشي. ولما ركزت في عينيا لاقيتها واسعة. وأنا صغيرة ماكنتش شاطرة في الـ Math. جه في بالي... تلا ممكن تكون ورثت مني إيه؟

نظر لها تيم ممتعضًا، ثم تنهد ولم يجب.

أكملت نادين:

ـ انت عارف يعني إيه يكون ليك طفل وما تشوفهوش؟

وبينما تقول ذلك، تذكرت أن لتيم طفلًا لم يره، فشعرت أن هذه نقطة يمكن أن تجعله يتفهم موقفها.

ـ لو كان ابنك لسه عايش، مش كنت تحب تعرف شكله؟

ندمت نادين فور أن قالت هذه الجملة، فهي تعلم أنها قد تجرحه.

تنفس تيم بعمق وقال:

ـ على فكرة، سما كانت مختارة اسمه: فريد.

ـ لسه فاكر اسمه بعد كل السنين دي؟ طب مش ساعات بتتخيل لو كان كبر قدامك كان هيبقى عامل إيه؟

أطرق تيم برأسه نحو الأرض وقال:

- بيحصل... ساعات.

ابتسمت نادين ابتسامة المنتصرة وقالت:

- يعني هتتفهمني لو قولتلك إني هكلم حنان تجيب البنت أشوفها.

لم يجب تيم، لكنه شعر بوخز في ضميره. لقد استطاعت نادين أن تجعله يتعاطف معها، فوافق على طلبها أن ترى تلا، طالما أنها لن تتبناها أو تربيها.

اتفقت نادين مع حنان أن تأتي بالطفلة، وأخبرتها حنان أنهما سيحتفلان بعيد ميلادها مع أصدقاء جدد لها، كتعويض عن يوم الحادثة الذي حال دون الاحتفال به.

أُقيم الحفل بحضور نادين، نانسي، وابنتيها (تسع سنوات وأربع سنوات)، وتيم، وزوج نانسي. أحضرت نادين الكعك، ووضعت مع نانسي الزينة. كما جلب الجميع هدايا للطفلة.

حين دق جرس الباب، كانت حنان ومعها تلا. فتحت نانسي الباب واستقبلت الطفلة بالترحاب، ثم أخذتها إلى نادين.

رأتها نادين من بعيد، وكان قلبها يخفق بشدة. اقتربت منها الطفلة ومدت يدها لتسلّم. أعطتها نادين هديتها مرتبكة، لكنها لم تستطع النظر إليها طويلًا. فجأة، تركت المكان وذهبت إلى الحمام، أغلقت الباب وأخذت تبكي. شعرت بها نانسي وبدأت تدق الباب بلطف وتناديها.

خرجت نادين من الحمام بعد أن مسحت آثار البكاء، ترتعد وتتنفس بصعوبة. أمسكت نانسي بيدها محاولة تهدئتها، وسحبتها معها إلى الصالة حيث كانت تلا تلعب مع بنات نانسي. بدت نادين خائفة كطفلة تذهب إلى المدرسة لأول يوم.

سرقت بعض النظرات لتلا وهي تلعب، وجاءها خاطر: ماذا لو علمت تلا أن هؤلاء هن بنات خالتها؟

في الحفل، أخبرتها حنان أنها تذهب لطبيب نفسي بعد أن حاولت الانتحار، لكنها تراجعت في آخر لحظة لأنها لم تعرف ماذا سيحل بتلا إذا ماتت.

نظرت نادين إلى الطفلة بقلق: كيف يمكن أن تأتمن حنان على تلا وهي في تلك الحالة؟

استمر الحفل ثلاث ساعات، كانت نادين خلالهما تنقل نظرها بين تلا، وتيم، وحنان. وبعد انتهاء الحفل ومغادرة الجميع، حلّ صمت ثقيل على البيت.

بدأت نادين تجمع بقايا الطعام وتنقلها إلى المطبخ وهي تحدث نفسها:

"البنت ليها أم ومتمسكة بيها... أنا هابقى إيه؟

لو جبتها عندي هدفع مصاريف مدارسها منين؟

أنا وتيم راسمين حياتنا خلاص، ما ينفعش يكون فيها طفل.

فرحي قرب... الناس هتقول إيه عليّا لما يبقى عندي بنت؟"

ثم مرّت بغرفة فارغة في الصالة، وجاءها خاطر: "ممكن تبقى دي أوضة تلا."

رن هاتفها، كان تيم. أجابت بلهجة حاسمة:

- أنا قررت... أخلي تلا معايا.

ذهبت تلا للعيش مع نادين بينما تتعالج حنان من الاكتئاب.

تم إخبار الطفلة أن نادين ستعتني بها حتى تكمل أمها علاجها، وأن لها والدتين يمكنها أن تنادي كلًا منهما "ماما".

انفصل تيم عن نادين بعد أن اعتذر لها عن عدم قدرته على تربية طفلة ليست ابنته.

أما نادين، فكانت ترى أن تلا تحمل حسنة في وجهها مثلها، وأن عينيها واسعتان كعينيها، وأنها ضعيفة في الرياضيات مثلها.

الحكاية الرابعة عشر

قصة " موعد مع الحب "

مين أنا... عايزة أعرف مين أنا؟

ليه أنا... أنا عايزة أعرف ليه أنا؟

الدنيا اختارت لي المعاد،

واختاروا اسمي عند الميلاد.

لا كان بيدي بدايتي،

ولا كان بيدي نهايتي.

ظلت فريدة تستمع لأغنية عبد الحليم في سيارتها وهي عائدة من جلسة المعالج النفسي. كانت قد ذهبت لتخبره بما تشعر به، ولم تجد من تُخبره أنّها ستموت. كانت تعرف أنّه لن يصدقها، فهو بحاجة إلى حجة منطقية، وكل ما تملكه هو إحساسها. لكنها أخبرته، حتى إذا ماتت يقول أحدهم: كانت تشعر.

تتوه عنيّا حواليّا، تشوف الدنيا مش هي،

تتلون بأحزاني، ويُصبح لونها لون تاني.

كانت فريدة تذهب إلى طبيب نفسي ليعالجها من الاعتداءات الجنسية التي تعرّضت لها وهي طفلة، لكن أمها كانت تعتقد أن ابنتها تذهب ليعالجها من الاكتئاب. لم تجرؤ فريدة على إخبارها بسبب مرضها.

نجومي في ليلي ضيّ حزين،

ورودي شايفهم دبلانين، وضاعت كل أحلام السنين.

****

أخرج سيف هاتفه وفعل ما يفعله منذ فترة طويلة، يقوم بالبحث عن صفحة فريدة على موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك"، يتفقد ما تضعه من منشورات جديدة، ويراقب ما تكتبه من تعليقات في صفحات أصدقائها والصفحات العامة.

تعرّف سيف على فريدة في السنة الماضية في حفلة عيد ميلاد "شاهندة" صديقته من أيام الدراسة وابنة عم فريدة. لفتت انتباهه فريدة، تلك الفتاة المنطلقة؛ كيف تضحك، كيف تتحدث... كان لها كاريزما خاصة، لكنه لم يتمكن من فتح حديث معها، وظل يراقبها في صمت، وربما كان أحد أسباب ذلك وجود رشا. لكن عقب انتهاء الحفلة، وجد صفحتها وهي تُعلق على صور عيد الميلاد، فأرسل لها طلب صداقة، وكانت سعادته عارمة حين قبلته. لكنه لم يجرؤ على التحدث معها، ووقتها كانت في حياته رشا.

بدأت علاقته برشا تمر بمرحلة فتور، فقد ملّ منها، وكان يشعر أنه تسرع عندما دخل في تلك العلاقة. فكر مليًا في كيفية إنهائها، حتى وجد الفرصة أمامه. تحجج لها بأن علاقتها مع أيمن ليست مجرد صداقة عادية، وأنه يشعر بأن هناك شيئًا أكثر يربطهما، وكرامته لا تسمح له بالاستمرار. حاولت رشا المسكينة أن تُثبت له براءتها، وكان هو يعلم في قرارة نفسه أنها لا ترى أحدًا سواه، لكنها كانت فرصته لإنهاء العلاقة.

عادت فريدة إلى منزلها، فوجدت أختها حنان هناك. كعادتها، كانت قد تشاجرت مع زوجها أمجد، وقام بضربها، فجاءت باكية شاكية. في البداية، كانت فريدة تتعاطف معها وتحثها على اتخاذ موقف جاد من تصرفات زوجها، لكنها اكتشفت بعد فترة أن أختها لا ترغب في تغيير حياتها. كانت تستمتع بدور الضحية: الزوجة التي تضحي بنفسها من أجل الحفاظ على بيتها، وفي سبيل ذلك كانت تحصد اهتمام وشفقة الجميع، وهذا ما كانت تريده في النهاية.

لم يكن أمجد بالوحش الكاسر الذي تُصوره للآخرين، بل هي من جعلته يبدو كذلك ليسهل عليها تقديم نفسها كضحية. لم تكن فريدة في حالة تسمح لها بالاستماع إلى شكاوى أختها وتمثيل دور المتعاطفة معها، ثم تقديم نصائح تعلم أنها لن تُنفذ منها شيئًا. انسحبت من أمام حنان، بينما كان بالها مشغولًا بفكرة موتها. كان عيد ميلادها قد اقترب في الرابع والعشرين من الشهر، وكانت تشعر أنها ستموت يوم عيد ميلادها. لم يكن لديها دليل على إحساسها هذا، لكنه كان الإحساس المسيطر عليها.

ظل سيف يراقب فريدة على فيسبوك. وفي أحد الأيام وجدها تكتب تعليقًا على إحدى الصفحات الموسيقية أنها تُفضل فيروز على أم كلثوم. هاجمها بعض المعلقين، وراقب هو ردودها، وكان سعيدًا أنها مثله تُفضل فيروز على أم كلثوم. كان قد شرح سابقًا لرشا أسباب تعلقه بفيروز، وأنها تأتي في المرتبة الأولى، ثم أم كلثوم، ثم بقية مطربي الزمن الجميل، لكن رشا لم تفهم قصده. أما فريدة، فشاركته رؤيته. ربما لم تكن تلك التفصيلة تعني الكثير لغيره، لكنها كانت تعني له الكثير أن يجد فتاة أحلامه تشاركه ذوقه الموسيقي.

جلست فريدة في غرفتها وأخرجت مفكرتها الخاصة. كان الطبيب المعالج قد طلب منها أن تكتب ما تشعر به على هيئة قصص، بعد أن فشلت في إخراج مشاعرها بالطرق العادية. كانت البداية صعبة، فمشكلتها مع الحب كانت عميقة. لم يكن لديها ثقة في الحب أو الرجال بعد ما تعرضت له من إساءات جنسية. لكن في قصصها لم تجرؤ أبدًا على كتابة ما تعرضت له من انتهاكات جسدية في طفولتها، بل كانت جميع قصصها تنتهي بنهاية واحدة: الموت، الذي كان يسيطر على فكرها في تلك اللحظة.

كان سيف يعلم من فيسبوك أن موعد عيد ميلاد فريدة قد اقترب، ولم يتبقَّ عليه سوى أسبوع واحد. لذا اتفق مع صديقته شاهندة أن تُعد حفل عيد ميلاد لفريدة وتجمع لها أصدقاءها منذ الطفولة، على أن يكون هو واحدًا منهم ليتعرف عليها. فكر طويلًا في الهدية التي سيجلبها لها. كان قد لاحظ من صفحتها أنها تميل إلى سماع الأغاني القديمة. وفي أحد المحال، وجد أواني فخارية مكتوبًا عليها أشهر "الكوبليهات الغنائية" من الزمن الجميل. شعر أنه وجد ضالته في إناء فخاري يصلح لشرب القهوة، مكتوب عليه كوبليه لمحمد فوزي: "ياريت أخطر على قلبك، ولو تكرهني وأحبك". شعر أن هذه الكلمات بالذات كُتبت من أجله هو وفريدة، فاشتراه ليقدمه لها.

الرابع والعشرون من أغسطس... يوم عيد ميلاد فريدة. كان قلبها يدق بشدة. كتبت في إحدى قصصها أن البطلة ستموت في يوم ميلادها، لكنها لسبب ما قررت تغيير النهاية. كتبت أن البطلة ستلتقي بحبها في يوم ميلادها، لعل هذا يُبعد عنها هواجس الموت التي تطاردها.

كانت قد تلقت مكالمة هاتفية من شاهندة تدعوها لاحتفال بيوم ميلادها في أحد المقاهي القريبة، ولم تكن تعلم بالمفاجأة التي تنتظرها.

بعد عدة أشهر، أُفرج عن سيف بعد أن أثبتت التحقيقات أن القتل لم يكن عمدًا، بل مجرد حادث، حين ظهرت أمامه فريدة فجأة ولم يستطع تفاديها. نتج عن الحادث مصرعها يوم عيد ميلادها.

لم يكن يخطر ببال سيف أنه في اليوم الذي نوى أن يبدأ فيه قصة حبه، سيقتل حبيبته في حادث سير. ولم تكن تعلم فريدة أن الحب الذي انتظرته سيحمل معها موتها، الذي طالما هربت منه.

الحكاية الخامسة عشر

قصة " الجريمة غير الكاملة "

أمام شاشة التلفاز تشاهد فيلمها المفضل — أو الذي صار فيلمها المفضل: «موعد على العشاء». تشاهده للمرة الخامسة في الأسبوع نفسه. يهمُّها فقط مشهد النهاية حين تنتقم البطلة من زوجها فتضع له السم في الطعام ثم تأكل معه مجبورة.

تدمع عيناها أمام ذلك المشهد يومياً؛ تتوحد مع بطلة الفيلم وترى فيها ما ينقصها من شجاعة. مشكلة البطلة هي نفسها مشكلتها: كلتاهما تعانيان من زوجٍ قاسٍ، لكن البطلة قررت أن تنتقم وتقتل زوجها، أما هي فما تزال مترددة، لا تعرف إن كانت تريد أن تقتله فعلاً أم يجب عليها أن تسامحه.

يُخبرها الأهل والأصدقاء أنه يجب عليها أن تغفر لزوجها عصبيته وحدَّة طبعه، وأن صبرها عليه وحده قادرٌ على تغييره، وأن له ميزات كثيرة تُغفر بها تلك الأفعال.

لكن هي وحدها لا تستطيع أن تنسى ما حدث في ذلك اليوم؛ هي وحدها تجاور القاتل المسمّى زوجها يومياً؛ تُشاركه طعامه وشرابه، تكوي ثيابه، تنام بجواره طوال الليل.

لم تكن الأيام الماضية سهلة عليها. كانت تفكر كل يوم في الانتقام، في تحقيق العدالة؛ هي وحدها من شاهدت الجريمة، وبالتالي عليها عبء تحقيق العدالة. من قتل يُقتل، لذا يجب أن تقتل زوجها. ستنفذ خطة سعاد حسني في فيلم «موعد على العشاء». قامت أولاً بتغيير قصة شعرها لتشبه إلى حد كبير قصة شعر سعاد في الفيلم، لربما يمنحها ذلك القوة لتفعل مثله.

ثم جلبت الخضروات وطبخت «المسقعة» تماماً كما طبخت سعاد في الفيلم لزوجها. بعد ذلك ستشتري السم وتدسه له في الطعام، لكنها لن تأكل معه كما فعلت سعاد؛ ستقول لزوجها أي حجة، لكن ماذا لو بعد موته قامت الشرطة بتشريح الجثة واكتشفت السم؟ لقد أكل طعامه في المنزل الذي صنعته له زوجته، وبالإضافة إلى ذلك هي لم تأكل معه؛ أي ضابط غباء سيكتشف أنها هي من فعلت ذلك ويُدانها ويُعدمونها. لن يقدر أحدٌ أنها فعلت ذلك لتحقيق العدالة. فلا أحد يعرف أن القاتل غيرها.

طرأ إلى ذهنها فكـرة جهنمية: لن تقتل زوجها وهي معه في البيت نفسه، بل ستخبره أنها ذاهبة لرؤية والدتها، وتُعد الأكل الممزوج بالسم وتضعه له في الثلاجة ليتناوله أثناء غيابها؛ هكذا لن تشك الشرطة فيها.

لكن مهلاً — لو فعلت ذلك لن تشبه سعاد حسني في آخر مشهد الفيلم؛ إذن ستكون قصة شعرها بلا فائدة. لم تجد جدوى سوى أن تقلد كل ما حدث في الفيلم بالتحديد في آخر المشهد، وتضحي بنفسها في سبيل تحقيق العدالة والانتقام من القاتل.

أعدَّت العشاء تماماً كما رأته في الفيلم؛ جعلت قصة شعرها مثل قصة سعاد في المشهد الأخير، حددت الكرسي الذي ستجلس عليه في نفس موضع كرسي البطلة، ووضعت كرسي زوجها مقابلاً لها تماماً كما في الفيلم.

أحضرت السم. كان صعباً عليها وضعه؛ ترددت كثيراً، ثم ذكرت نفسها بالجريمة التي ارتكبها زوجها، وتمتمت قائلة لنفسها: «هو يستحق الموت... هو يستحق الموت».

مرت الدقائق عليها كأنها سنوات وهي تفتح العبوة لتضع السم. تذكرت قصة الحب الكبيرة التي جمعتها بزوجها أيام الجامعة: كم كانت سعيدة أيام الخطوبة، وكيف كان شهر العسل أجمل أيام حياتها. زوجها كان عصبيًّا جدًا، لكنه كان حنوناً أيضاً؛ يُبكيها أحياناً ثم يعود فيصالحها. كانت طفلته المدللة، ودائماً ما يأتيها بالهدايا وقطع الشوكولاتة التي تحبها. لكنه قاتل ـــ قاتل. كيف تغفر له جريمته؟

يدق جرس الباب. تتحرك لتفتحه، وتتساءل: من سيأتي الآن؟ هي لا تنتظر أحداً، وهذا موعد رجوع زوجها، وإن كان هو فلماذا يدق الجرس وهو معه مفتاح الشقة؟ يزداد القرع على الباب. تذهب لتفتحه فتجده زوجها، والمفاجأة أنه يحمل في يديه قطة من نفس نوع قطتها التي كانت لديها، ويقول لها:

- **«حبيبتي، أنا آسف إني اتعصبت عليكي ورميت قطتك من البلوكة... لاحظت إنك بقالك أسبوع حزينة عليها، عشان كده اشتريتلك غيرها من نفس النوع».**

تبتسم بشدة، تحتضنه، وتنسى السم وقصة شعر سعاد حسني وفيلم «موعد على العشاء» وارتكابه لجريمة قتل قطتها.

الحكاية السادسة عشر

قصة " حكاية وفاء "

بعد زواج دام ثلاث عشرة سنة أخبره الأطباء أن يستعد لتوديع زوجته وأم طفليه الصغيرين. نظر إلى زوجته «وفاء» وهي على فراش المرض تصارع الموت في كل لحظة. منذ أسبوعين بدأ الأقارب والمعارف يزورونها بحجة السؤال عن حالتها، وإن كان السبب الحقيقي هو توديعها في الوداع الأخير. اليوم خلت غرفة وفاء من الوافدين للاطمئنان على صحتها؛ لا يوجد بها سوى زوجها «سيد» وأخت زوجته «هدي» وطفلها الرضيع. في أثناء ذلك ذهب سيد إلى أخته للاطمئنان على ولديه الذين تركهما عندها منذ دخول وفاء المستشفى؛ أخبر زوجته أنه سيغيب لمدة ساعة ثم سيعود، تاركًا إياها برفقة أختها هدي.

بعد رحيل سيد نظرت هدي إلى أختها طريحة الفراش ورأت علامات الحزن واليأس ترتسمان على وجهها. أرادت طمأنتها فقالت لها:

ـــ اطمئني، هذا المرض سيزول وستستردين عافيتك عما قريب.

أجابت وفاء بوهَن:

ـــ لا أظن ذلك... أشعر بأنفاس الموت تقترب مني.

أرادت هدي أن تطمئن أختها المريضة، لكنها هي نفسها كانت تعلم أن أيام أختها أصبحت معدودة؛ ظلّت وفاء صامتة، بدا أنها شاردة في أمر ما، ثم تذكرت أمرًا يشغل بالها. نظرت إلى هدي وشعرت أنها الشخص الوحيد الذي يمكنها أن تستأمنه على رغبتها الأخيرة، فأخبرتها بخجل:

ـــ أريد رؤيته... أعلم أني سأموت، أريد فقط رؤيته قبل موتي.

سألتها هدي مستغربة:

ـــ مَن هو يا عزيزتي؟

ردت وفاء بخزي:

ـــ فادي.

احمرَّ وجه هدي غضبًا. معقول أن تظل وفاء تحب فادي بعد مرور ثلاثة عشر عامًا على زواجها؟ فادي جارهم المسيحي؛ تربَّى معهم منذ نعومة أظافرهم، وعندما كبرا بدأت وفاء تتعلق به أكثر. كانت تختلق مواقف لزيارة والدته بحجة أنها جارتهم المريضة وتحتاج من يخدمها كي تحيك الأحاديث معه، لكن انكشفت خطتها وبدأت تظهر علامات الحب على وجهها تجاه فادي. كان الجميع يعلم أن قصة الحب هذه مستحيلة بين شاب مسيحي وفتاة مسلمة، وأولهم وفاء وفادي أنفسهما. عندما علم والدها بنشوء تلك العلاقة قرر تزويج ابنته كي ينساها فادي، فأرغمها على الزواج من «سيد»؛ كان سيد العريس مناسبًا آنذاك في نظر والدها، وأنجبت منه طفلين. لم تكن بينهما خلافات تُذكر، فقد كان سيد يحبها بشدة ودائمًا ما يمتدحها أمام أهله ويقول

إنها نعمة. حتى فادي نفسه قد تزوج وأنجب طفلة ونُسي الجميع تلك القصة القديمة. لكن يبدو الآن أنها ما تزال موجودة في نفس وفاء.

قالت وفاء لهدي:

ـــ أنت امرأة متزوجة الآن، لا يصح أن تفكري في حبك القديم.

ردت هدي ببرود:

ـــ بل أنا في عداد الأموات... ما هي إلا ساعات وينتهي كل شيء. هذه رغبتي الأخيرة يا هدي.

كشرت هدي لو كانت في غير ظروف لكان لها رد فعل أقسى تجاه أختها، لكن أختها الآن في عداد الأموات كما قالت. ردت هدي في برود:

ـــ وماذا تريدين مني الآن؟

أجابت وفاء:

ـــ أن تأتي به هنا.

صُدمت هدي:

ـــ أجننتِ يا وفاء... وزوجك ماذا سنقوله له؟

قالت وفاء مقتضبة:

ـــ تصرّفي يا هدي... تصرّفي.

فكرت هدي في طلب أختها؛ ظنت أنه يجب عليها أن تنفذ رغبة أختها الأخيرة. لقد عاشَت وفاء ثلاثة عشر سنة حسب رغبة والديها والمجتمع، وهي الآن على فراش الموت لا تستطيع أن تكابر وتظهر عكس ما تبطن. قررت هدي أن تحضر فادي لأختها. بعد زواج فادي مرضت زوجته فتركته لابنها الصغير؛ كانت وفاء تراعاه وتربّيه، وظن الجميع أنها تفعل ذلك من باب الإحسان والشفقة على تلك الرضيعة التي لا حول لها ولا قوة. لم يخطر في بال أحد أنها تحن لحبها القديم. قررت هدي أن تطلب من فادي الحضور ومعه ابنته مريم، لرغبة أختها في توديع الصغيرة التي تربّتها، فردّدت الاتصال سريعا عله يأتي ويذهب قبل أن يعود زوجها إلى المستشفى.

بعد أن اطمأن سيد على أولاده وهم برفقة عمتهم أخبرته هدي أنها تريد التحدث إليه في موضوع هام. ترددت في البداية ولم تعلم من أين تبدأ، ثم قالت:

ـــ أنت تعلم يا أخي أن الموت علينا حَق، وأن زوجتك بحسب كلام الأطباء لن تعش طويلًا، وأنت ما زلت صغيرًا وأولادك أيضًا بحاجة إلى من يراعهم.

قال سيد بصبر:

ـــ أخبريني ما تريدين قوله دفعة واحدة.

أجابت هدي:

ـــ أنت تعرف منال، أخت زوجي... هي مسكينة، طلقها زوجها عندما علم أنها لا تستطيع الإنجاب. ربما يكون هذا العيب ميزة لك؛ فسوف تعتبر أبناءك أبناءها وستحسن تربيتهم وترعاهم.

****

اتصلت هدي بفادي وأخبرته أن يأتي ومعه ابنته الصغيرة. ظلت تنظر إلى أختها وهي ممتعضة؛ كانت تفضل السكوت لكنها لم تستطع منع نفسها من السؤال: لماذا يا أختي؟ لماذا لم تحبي سيد مثلما أحببتِ فادي؟ فقد اعتنى سيد بك، يرافقك من طبيب إلى آخر طوال مدة مرضك ولم يشتكِ يومًا.

لم تعلم وفاء بماذا تجيب؛ لم تكن قد أحبّت زوجها مثلما أحبّت فادي. لم تكرهه، لكنها لم تحبه كما أحبّت فادي؛ أو ربما أحبت سيدًا لكن حبها له اختلف عن حبها لفادي. ربما لم تقصد أن تظل تحب فادي كل تلك المدة. كلما سمعت أغنية لعبد الحليم حافظ تذكرت فادي وليس زوجها. عندما تحضر فيلما رومانسيا تتذكر أنها عاشت هذه اللحظات مع فادي وليس مع زوجها. لا تستطيع أن تقول إن زوجها لا يحتل مكانًا في قلبها، لكن فادي أيضًا موجود في نقطة عميقة من روحها. أهي خيانة لزوجها؟ بالطبع لا؛ هي لم تفعل شيئًا يسيء لكرامته. كانت مشاعرها مجرد مشاعر؛ من منا يختار بماذا يشعر وفي أي وقت؟ كانت تعلم أنه إذا أصاب زوجها مكروهًا ستحزن جدًا، وكانت لتحزن بنفس المقدار لو أصاب فادي مكروهًا أيضًا.

****

غضب سيد كثيرًا ونظر إلى أخته وبخها قائلاً:

ـــ زوجتي ما زالت على قيد الحياة، وحتى إن توفاها الله فلن أتزوج بعدها؛ هذا موضوع منتهي.

ردت هدي:

ـــ لكن يا أخي، أنك ستظلم نفسك هكذا... أنت ما زلت صغيرًا، لم تكمل حتى الأربعين. ستعيش وحيدًا لباقي العمر.

أجاب سيد بحزم:

ـــ نعم... فبعد وفاء لن تملأ عيني امرأة. أَنسيْتِ يا أختي ماذا فعلت وفاء عندما مررت بضائقة مادية؟ تحملتني، لم تشتكِ يومًا من ضيق الحال، لم تكن كثيرة الطلبات مثل غيرها من النساء. كيف لي أن أجد زوجة مثل وفاء ثانية؟ إن ماتت وفاء سأعيش على ذكراها باقي عمري.

****

دخل فادي إلى غرفة وفاء ومعه ابنته. ألقى التحية عليها وعلى هدي. بعد دقائق أصرخ رضيع هدي فاضطرت هدي إلى الخروج لإرضاعه، تاركة فادي ووفاء وحدهما.

نظر فادي إلى وفاء مليًا، فكّر كثيرًا فيما يود قوله ثم قال:

— سلامتك... الشدة تزول. مريم اليوم أشعلت شمعة من أجلك في الكنيسة.

نظرت وفاء إلى الصغيرة بشفقة؛ كانت مثل ابنتها. تمنت أن تكون ابنتها أو أن يكون فادي أبًا لطفليها—كثيرًا ما تخيلت لو أن فادي كان أب طفلها وليس سيد.

في تلك الأثناء حضر زوجها سيد إلى المستشفى وكان يتجه إلى غرفة زوجته. تمنت وفاء أن تلمس يد فادي للمرة الأخيرة؛ شعرت أنه هو أيضًا يرغب بذلك.

دخل سيد الغرفة، رآها مسندة رأسها ووجهها قد ازداد هدوءًا، وعلم فورًا أنها أسلمت الروح. على يمينها زوجها المخلص، وعلى يسارها حبيبها السري.

الحكاية السابعة عشر

قصة " هو وهي والفقد "

يكتب سطرًا ثم يمحو ما كتب، ويعيد ذلك عدّة مرات، ثم يزفر بضيق ويغلق جهاز الحاسوب. ينظر إلى الساعة فيجد أن الوقت قد تأخر كثيرًا، ويذكّر نفسه بأنه يجب أن ينام الآن لكي يكون في الجامعة في تمام الثامنة صباحًا. يذهب إلى الفراش، يغمض عينيه، ويتخيّل نفسه يغرق في حوض الاستحمام. لا يؤذيه هذا التخيّل، بل يجد فيه نشوة غريبة. يبتسم في داخله، ثم ينام.

اليوم التالي:

يذهب إلى الجامعة في موعده المحدّد. لا يسمح بدخول الطلاب المتأخرين بعده، فهو شديد الالتزام بالمواعيد، ويطالب الجميع أن يلتزموا مثلما يفعل. يناقش ما قدّمه الطلبة له من أبحاث، ثم يذهب إلى الدكتور المشرف على رسالته للدكتوراه. يوبّخه المشرف على تأخيره في إنجاز الرسالة، ثم يغادر الجامعة عائدًا إلى بيته.

يتصل به أحد الأصدقاء ويدعوه للخروج للتنزّه، لكنه يرفض ويفضّل البقاء في المنزل. لم تكن هذه المرة الأولى التي يرفض فيها، فهو منذ شهور يحبس نفسه داخل شقته. أصبح الخروج، ومقابلة الأصدقاء، وتبادل الأحاديث الودية المعتادة، أمرًا يتطلّب منه مجهودًا كبيرًا لا يقوى عليه. ولو استطاع أن يظل داخل منزله طوال الوقت دون أن يضطر للذهاب إلى الجامعة وأداء مهامه كمعيد، لفعل.

يحلّ المساء. يفتح جهاز الحاسوب ويحاول الكتابة في الرسالة، لكن الكلمات تضيع منه ويفقد تركيزه. يترك شاشة الحاسوب محاولًا أن يقوم بأي نشاط يعيد إليه تركيزه. يقف أمام النافذة، ينظر إلى الشارع، فيرى جارته الجديدة وهي تهمّ بالخروج. كانت ترتدي ملابس فاضحة. هو لا يحب عادة هذا النوع من النساء اللواتي يتعمّدن إظهار مفاتنهنّ، ويراهنّ سلعة رخيصة. يعود إلى مكتبه ليكتب من جديد، لكن الوقت يمرّ سريعًا ويجد أن الليل قد تأخر، فيتجه إلى الفراش. في طريقه ينظر من النافذة فيراها عائدة إلى بيتها. يبدو من مظهرها أنها ليست بكامل وعيها، كمن تناول الكثير من الكحول حتى فقد اتزانه. يتساءل في داخله: "ترى، إلى أين ذهبت؟" لكنه يقرر أن الإجابة لا تعنيه. يذهب إلى الفراش، يتخيل نفسه يغرق، يتلذذ بتخيله، ثم ينام.

يتكرّر الروتين ذاته في الأيام التالية: الذهاب إلى الجامعة، العودة إلى البيت، محاولة الكتابة في الرسالة، ثم مراقبة جارته الجميلة من النافذة. صار يعرف روتينها اليومي؛ تخرج عند بداية المساء، وتعود قرب الفجر، فاقدة لوعيها. ذوقها في الملابس جريء إلى حد كبير. وبفضل موقع شقته المقابل لشقتها تمامًا، صار يكشف غرفتها بسهولة. أحيانًا يراها ترقص قبل أن تنام، وأحيانًا أخرى تبدو وكأنها تتحدث مع شخص ما، أو تتشاجر مع آخر وهي وحيدة بالغرفة. وبعد أن ينهي مراقبته لها، يذهب إلى فراشه، فتعاوده تخيّلات الغرق ثم ينام.

ومع تكرار هذا الروتين، بدأت مشاعره تجاه جارته تتغيّر. في البداية صنّفها كـ"امرأة سيئة السلوك"، لكن فضوله دفعه إلى مراقبتها. ثم ازداد فضوله، وأصبح يريد معرفة اسمها ورؤية ملامحها عن قرب. الأولى كانت سهلة، فبمجرّد سؤال بسيط لحارس العقار عرف أن اسمها

"سحر". أمّا الثانية فكانت أصعب، إذ كان عليه أن ينتظر صدفة تجمعه بها أو أن يحاول هو التقرب إليها. ظلّ يراقبها حتى شعر أن مشاعره تجاهها بدأت تميل للشفقة، ثم بدأ يوقن أن ثمة شيئًا غريبًا مشتركًا بينه وبينها.

لكن ما الذي قد يربط بينهما وهما نقيضان؟

هو شاب ريفي، متحفظ بطبعه، ملتزم جدًا، أمّا هي فامرأة متحرّرة، ليبرالية إلى أقصى حد. ومع ذلك، وجد نفسه يتعلّق بها شيئًا فشيئًا. صارت الدقائق التي يسرقها وهو يراقبها من النافذة هي أمتع لحظات يومه. تمنّى أن يراها عن قرب، أن يجلس معها ويتبادل أطراف الحديث. حتى جاء يوم حلم فيه بأنه يغرق، لكنها تنقذه.

****

في اليوم التالي، قرر أن يتبعها حيثما تذهب لعلّه يجد فرصة يفتح بها حديثًا معها. ظلّ يراقبها من نافذته حتى خرجت، فخرج خلفها. ركبت سيارتها، فركب سيارته ولحق بها حتى استقرّت أمام أحد الملاهي الليلية ودخلت.

دخل هو خلفها. لم يكن الجو هناك يلائمه، فهو لم يعتد دخول مثل هذه الأماكن. ظل يراقبها من بعيد. لم يأتِ أحد ليجلس معها، كانت وحيدة وسط هذا الصخب، تنظر إلى شاشة هاتفها وتتناول الكحول. داخله رغبة شديدة في الحديث معها، لكنه لم يعرف بأي حجة يبدأ. اقترب وجلس بجانبها. أراد أن يبدو واثقًا مثلها ويخفي خجله المعتاد، فجرب لأول مرة في حياته أن يشرب الكحول أمامها.

نظرت إليه سحر، وكأنها تحاول تذكر شيئًا، ثم قالت:

ـ انت دكتور أسامة... جاري.

توتر أسامة، فقد كان يفكر في حجة لبدء الحديث، فإذا بها تسبق وتفعل. تنحنح وقال:

ـ أيوة... أنا جارك.

ـ مالك بتقطع؟ ليه كده؟

يتناول كأسًا بسرعة ويحاول أن يأخذ نفسًا عميقًا ثم يقول:

ـ دي أول مرة أدخل مكان زي ده... أنا كنت عايز أحكي معاكي.

تشرب سحر كأسها وترد بلا مبالاة:

ـ إحكي.

ظل صامتًا لحظات ثم قال

ـ أنا بشتغل معيد في جامعة القاهرة... بس نظام التدريس كله روتين وبروتوكولات.

ندم في داخله، فالمكان والشخص ليسا مناسبين لهذا الحديث. استدرك قائلًا:

ـ إنت بتشتغلي إيه؟ أنا حاسس إنك ممكن تبقي موديل.

ابتسمت بخفة وقالت:

ـ لأ... أنا دكتورة نفسية، بس بقالي سنتين موقفة الجلسات.

ـ بجد! يبقى ممكن تفيديني.

قاطعته سحر:

ـ بلاش تتقل في الشرب... شكلك مش متعوّد.

ـ فعلاً أنا ما بشربش عشان حرام، بس النهاردة عايز أجرب عشان آخد جرأة وأتكلم... أنا عايز أتكلم.

ـ بس أنا مش قادرة أسمع. الناس في العيادة كانوا بييجوا يدفعوا فلوس عشان يتكلموا ويبكوا، لكن أنا خلاص ما بقيتش قادرة أسمع قصص تاني.

نظرت إليه مليًا ثم أضافت:

ـ انت شكلك بتعاني. المفروض كإنسانة مثقفة ودكتورة نفسية أفهم إن الألم النفسي أشد من العضوي وأسمعك، بس نصّي مش قادر.

شرب كأسًا آخر وقال:

ـ حياتي مملة. بروح الشغل، أتعامل مع الطلبة والدكاترة، وأرسم ابتسامة على وشي، بس من جوايا فاضي. ولما ييجي الليل، أتخيل نفسي بموت غرقان... وأنا سعيد بالمنظر ده، بس مش قادر أنفذه. بس أنا أستحقه.

أدارت سحر وجهها عنه وزفرت بضيق. لاحظ أسامة الملل على ملامحها، فوضع يده على يدها وقال بصوت رقيق وهو ينظر في عينيها:

ـ أنا حاسس إن في بينا حاجة مشتركة، ومش عارف سر الإحساس ده.

تفاجأت سحر من كلماته وسحبت يدها، لكنه تابع:

ـ عارفة؟ كل الناس شايفاني أستاذ الجامعة المحترم اللي بيخاف ربنا، بس محدش فيهم يعرف إني حقير... إني أستاهل الموت.

لم تُظهر اكتراثًا، فتابع ليشد انتباهها:

ـ أنا قاتل.

نظرت إليه بدهشة، فأكمل:

ـ آه، أنا قتلت... بنتي.

تغيّرت ملامح سحر وبدأت تركز:

ـ كنت متجوز من ست سنين، وطلقت مراتي بعد ما لقيت مسجات بينها وبين عشيقها. كان المفروض أقتلها زي أي صعيدي، بس ما قدرتش.

سيبتلها البنت تربيها. وكل يوم كنت أسأل نفسي: يا ترى البنت بنتي ولا مش بنتي؟

ـ وليه ماعملتش تحليل DNA؟

ـ خوفت تطلع مش بنتي... وأصغر قدام نفسي.

أخذ كأسًا آخر وأكمل:

ـ في يوم، خدت البنت معايا، وقالتلي إنها هتنزل البسين. سمعت صوتها بتصرخ، بس ما أنقذتهاش. فضلت واقف أبص عليها وهي بتغرق قدامي. ملاك بريء مالهوش ذنب... بس أنا جبان وخسيس. سيبتها تموت. أنا الراجل المثقف... اللي يعرف ربنا... قررت أنتقم من طفلة بريئة. أنا أستاهل الموت.

نظرت إليه سحر بذهول، ثم أمسكت حقيبتها متجهة نحو الباب. أمسك يدها بتوسل، ودموعه تنهمر لأول مرة منذ سنين:

ـ ينفع... تحضنيني؟

سحبت يدها بعصبية، خطت نحو الباب، ثم توقفت. أخذت نفسًا عميقًا، وعادت لتقف أمامه. نظرت إليه وهو يبكي، وقالت:

ـ إنت مش لسة قايل إنك حاسس في حاجة مشتركة بينا؟ اللي هقوله دلوقتي مالوش علاقة بالطب النفسي... بس يمكن يكون التفسير الوحيد. أحنا الاتنين قتلنا ولادنا.

اتسعت عينا أسامة في دهشة، فأكملت:

ـ أنا قولتلك إني وقفت جلسات العلاج من سنتين، بس ما قولتش السبب... كنت في المعتقل. هناك اغتصبوني. ولما خرجت، عرفت إني حامل. قررت أجهض... ومعاه فقدت الرحم كله.

ساد الصمت. الصخب حولهما مستمر، لكن بينهما كان صمت ثقيل.

اقترب منها أسامة، وارتمى في حضنها باكيًا. احتضنته هي وبكت أيضًا.

كأنهما لوحة مرسومة للفقد والألم.

الحكاية الثامنة عشر

قصة " أين أبي "

عُدت من المدرسة تُهاجمني الذكريات، أراها كأنها مشاهد متلاحقة في فيلم. عشت حياتي بين أحضان أمي وجدتي، كانت حياتي هانئة مستقرة حتى ذهبت إلى المدرسة. حينها سمعت لأول مرة كلمة "بابا". كانت الفتيات يتحدثن عن "بابا".

أخبرتني ليلى أن بابا يُحضر لها الشوكولاتة وهو عائد من العمل، وأخبرتني هند أنها أحيانًا تركب على ظهر بابا حينما يلعبان معًا. أما أنا، فأين أبي الخاص بي؟

عُدت إلى المنزل وسألت أمي: أين أبي؟

رمقتني بنظرة لم أفهم معناها وقتئذ، ثم قالت بصوت صارم دون أن تتلاقى عيناها بعيني:

– أبيكِ مات.

– ما معنى مات؟

– يعني ذهب إلى ربنا.

– ومتى يجيء؟!

– لن يجيء، من يذهب إلى ربنا لا يجيء.

وأنا في الحادية عشرة من عمري بدأ فضولي يزداد لمعرفة أبي.

– أمي، أليس معك صورة لأبي؟

تطرق أمي رأسها ثم تقول:

– **جميع صور أبيكِ فقدتها في زلزال عام 1992.**

– ألم تحتفظي بأي صورة لزوجك؟

– قلت لكِ، فقدتها.

كانت "ماما" عادة حنونة معي، لكني لاحظت أنها لسبب ما عند ذكر "بابا" تصبح عصبية وتتحاشى الحديث عنه. يومًا بعد يوم كان يزيد احتياجي إلى "بابا". حينما أرى صديقاتي يتحدثن عن آبائهن، كنت أغار بشدة. كنت أرغب بأب يحميني ويدللني. كثيرًا ما كانت عيني تدمع خلسة حينما أرى عطف أحد آباء صديقاتي عليهن.

في عمر الخامسة عشرة سألت أمي:

– ماذا كانت طباع أبي؟

رمقتني أمي بتلك النظرة التي كنت أعرفها جيدًا حينما كانت تفتح سيرة أبي، وأجابت باقتضاب:

– كان طيبًا.

كان اختصار أمي لا يملأ ظمأ قلبي إلى معرفة أبي، فاستكملت قائلة:

– وماذا أيضًا؟

– لا يؤذي أحدًا.

– ما هو لونه المفضل؟

– لا أتذكر.

– كيف لا تتذكرين ماذا يحب زوجك؟

صرخت بي أمي:

– لين، كفي عن أسئلتك وعودي لدروسك.

تأكد لي أن ماما لن تفيدني بشيء. لم أكن أدري لماذا تتغير طريقتها معي حينما أذكر أبي. استسلمت ليتمي. كنت كثيرًا أبكي قبل أن أنام دون أن تراني أمي. أتذكر كل ذلك الآن وقد استبد بي غضب وحنق.

عُدت إلى البيت، وجدت أمي تنتظرني. ألقيت نظرة عليها، بدت ضعيفة جدًا، امرأة أضاعت عمرها تعمل على ماكينة خياطة كي تلبي احتياجاتي. استبد بي شعور بالرحمة والشفقة عليها، لكن لم يمنعني ذلك من أن أسأل السؤال الذي كتمته في صدري ثمانية عشر عامًا:

– أمي، أين أبي؟!

نطقت "لين" هذه الكلمات وهي تظن أنها تصرخ في وجه أمها، لكن صوتها في الحقيقة لم يكن أكثر من همس بالكاد يُسمع. ومع ذلك، كان وقعه على "رانيا" الأم كأنه صراخ ظل محبوسًا لسنوات.

لم يكن عليها سوى أن ترى نظرة واحدة من عيني ابنتها "لين" حتى تعلم أنها علمت.

أجابت بصوت واهن ونظراتها إلى الأرض:

– لا أعلم.

ودّت لين في تلك اللحظة أن تصرخ في وجه أمها: كيف احتملت أن تراني أتعذب طوال السنين الماضية وأنا دون أب، وأنتِ تعلمين أن أبي على قيد الحياة؟ لكنها لم تصرخ، انسحبت بهدوء إلى غرفتها وبدأت تبكي بحرقة على ما ضاع من عمرها من سنوات مع إحساس اليُتم، ثم عزمت على معرفة الحقيقة الكاملة.

في اليوم التالي قررت أنها يجب أن تذهب لتقابل والدها. عند خروجها من المنزل، أخبرت والدتها أنها ذاهبة لزيارة منى صديقتها. كانت رانيا تعلم أن ابنتها تكذب وأنها ذاهبة لكشف السر الذي طالما أخفته، لكنها لم تمنعها. قالت لها: "اذهبي". لم تكن لهجة أمر، بل بصوت أقرب إلى التوسل أن تعود إليها ثانية.

خرجت لين من المنزل واستقلت الحافلة ناظرة إلى الطريق، ولكأن الطريق الذي اجتازته بالأمس أصبح اليوم أكثر بهجة وإشراقًا. كانت تشعر أنها ستبدأ فصلًا جديدًا من حياتها.

دخلت إلى المطعم كما قال لها عمها تمامًا، وانتظرت أن يأتي أبوها. بدأت تشعر أن نبضات قلبها تضطرب وصعوبة في التنفس. حاولت أن تتخيل ملامح والدها. تُرى، ماذا تكون قد ورثت من ملامحه؟ كيف يبدو أبي؟ رجل خمسيني أنيق ذو شعر كستنائي؟

أخبرها النادل أن من كانت تسأل عنه قد أتى. تأملته من بعيد، فوجدت هيئته رثة كما لم تتوقع. نظر إليها، ويبدو أنه عرفها. خفق قلبها بشدة عند رؤيته. أخذت تتأمل ملامحه. لا يبدو أنه يهتم كثيرًا بمظهره الخارجي. بدا بعيدًا تمامًا عن تلك الصورة التي رسمتها له في خيالها.

اقترب منها وحاول احتضانها، لكنه كان حضنًا باردًا على غير ما توقعت. شعرت في تلك اللحظة أنها تود لو تهرب أو تنشق الأرض وتبلعها. ألم يكن هذا ما تمنّت؟ لماذا الآن تريد أن تهرب؟ لكنها تمالكت أعصابها.

طلب "بابا" من النادل كحول. ذُهلت: كحول؟! أبي يشرب كحول؟! أيكون ذلك سبب طلاقه من ماما؟ أيكون أبي مدمنًا على الكحول؟ تسارعت كل تلك الأفكار إلى ذهنها.

لكن قطع الحديث صوت أبيها قائلًا:

– كيف عرفتي طريقي؟

شعرت كأنها طُعنت في قلبها. أهكذا يستقبلني أبي؟! ارتسمت على وجه لين علامات الضيق وبدأ يلوح شبح دموعها في عينيها.

قالت بصوت متقطع: – من عمي. أتى أمس إلى مدرستي وأخبرني بمكانك، وأن هذا المطعم هو لك، ويمكنني إذا أردت أن أراك أن آتي إلى هنا في مثل هذا الوقت.

– آه، آه، أخبرني أكرم أنه زارك أمس.

ثم تناول كأس كحول وكأنه يمارس شيئًا عاديًا، في حين أن ماما "رانيا" لم تكن لتقبل أن ترى ابنتها وأمامها أي نوع من الخمور.

قبل أن تفيق من صدمتها، أتى طفل صغير ونادى أبيها "بابا". أخ! مفاجأة جديدة: لديها أخ صغير! الأمس اكتشفت أن لها عمًا وأبًا، واليوم تعلم أن لها أخًا! أخذ الطفل ما يريد ثم ذهب إلى حيث جاء. شعرت بالحقد على ذلك الطفل، فهو يقول "بابا" في حين حرمت هي منها.

نظر لها أبيها وبدأ الحديث معها، سألها عن أحوالها ودراستها وأي كلية تريد أن تدخل، وطلب منها أن تجتهد في الثانوية العامة. حديث يمكن أن يقوله لها أي شخص غريب، لكن ليس أبيها الذي لم تره منذ ولادتها. أهذا هو اللقاء الدرامي الذي تخيلته حين ترى أباها لأول مرة؟

مع استرسال أبيها في حديثه العادي الذي ظن هو أنه ودي، قالت بنبرة أشبه بهجوم:

– أبي، أنا حتى أمس فقط كنت أظن أنك ميت، واليوم أول مرة أراك. ألم يأتِ في بالك أن تسأل عني؟ أنسيت أن لك ابنة؟ لماذا اختفيت من حياتي؟

صمت الأب ولم يُجب. استرسلت لين في عتابها:

– أخبرتني أمي أنك متّ. ألن يعني ذلك لك شيئًا؟

انتظرت لين أن يسوق لها مبررات أو أعذارًا أو تفسيرات لسبب غيابه عنها، لكنه صمت. صمت فقط.

شعرت بخيبة أمل كبيرة لا توصف، وعزمت على الخروج ونسيان سؤال طفولتها: أين أبي؟

حينما عادت إلى المنزل، رأتها أمها لكنها لم تسألها عن شيء. آثرت أمها الصمت على الحديث، مثل أبيها. ذهبت إلى غرفتها وبكت بحرقة وكبرياء مجروح، وقررت أن تنسى أباها تمامًا وتكتفي بوجود أمها في حياتها.

استيقظت في اليوم التالي، وهمّت بالخروج للذهاب إلى المدرسة. رأتها أمها وعرضت عليها أن تتناول معها الإفطار لكنها رفضت. لم تعلق أمها، تركتها وشأنها. كانت تعرف أن ابنتها كشفت كذبتها، أكبر كذبة يمكن أن يكذبها أحد عليها في حياتها. كان عليها أن تُبرر، أن تُدافع، لكنها صمتت، مثلما فعل أبيها.

ذهبت لين في طريقها إلى المدرسة، لكن فجأة خطر في بالها سؤال: ما عمر ذلك الطفل الذي رأته أمس؟ يبدو أنه ذو خمس أو ست سنوات. إذا، ماذا كان عمرها عندما تزوج أبيها مرة أخرى؟ هل نسي أن لديه ابنة وشرع في تأسيس أسرة جديدة؟ لماذا اختارت أمها أن تقول إنه مات بدلًا من قول الحقيقة أنهما تطلّقا؟ لماذا كان وجه أمها يشحب كلما أتت سيرته؟ لماذا أتى عمها وأخبرها أمس أن لها أبًا؟ لماذا أتاها في المدرسة وليس في المنزل أمام والدتها؟

كل هذه أسئلة كانت في ذهنها، كانت يجب أن تعرف. هذا حقها. لكن أباها وأمها لاذا بالصمت، إلى جانب صمتها هي الخاص. عدلت عن فكرة الذهاب إلى المدرسة، وقررت الذهاب إلى مطعم أبيها.

****

حينما دخلت المطعم رأت ما لا تتوقع؛ شاهدت أباها وهو يتشاجر مع أحد الزبائن بعد أن اتهمه بمعاكسة زوجته. تبادلا أبشع الألفاظ النابية التي لم تسمعها إلا من أولاد الشوارع. كانت أمها دائمًا تخبرها أن والدها رجل طيب لا يحب أن يؤذي أحدًا. جمعت كل الصفات الإيجابية التي رأتها في الآباء من حولها، وصنعت منهم صورة مثالية لأبيها. أن يكون هذا هو والدها في الحقيقة! كانت توقعاتها المرتفعة سببًا في صدمتها وخيبة أملها.

انتهى الشجار، خرج الزبون مع زوجته وهو يطلق مسبة قبل أن يغادر. حاول والدها إعادة ترتيب ملابسه وخصلات شعره، ثم لمح ابنته من بعيد وهمّ بالاقتراب منها. كانت على وشك أن تغادر المكان الذي تحطمت فيه كل أحلامها الوردية، لكنه ناداها باسمها: لين. كان وقع اسمها مختلفًا في نفسها؛ كيف لهذا الرجل الذي أطلق أبشع الألفاظ منذ لحظات أن يناديها بكل هذه الرقة؟ وقفت عند الباب، استدارت ونظرت إليه. بدا كطفل صغير يستنجد بها. سألها:

ـ أتحتاجين أموالًا؟

ـ لا، شكرًا.

ـ لماذا لا تناديني بابا؟

اضطرب قلب لين؛ لطالما رغبت أن تقول "بابا"، لكنها الآن وجدتها كلمة ثقيلة على نفسها. أجابت: يجب أن أرحل.

ناداها مرة أخرى برقة:

- **لين، هل ستأتين ثانية؟**

استنكرت السؤال في نفسها. أكلما أرادت أن تراه يجب أن تأتي إلى مطعمه؟ لماذا لم يدعها لزيارة منزله؟ لماذا لم يسألها عن بيتها أو حياتها مع أمها؟ هل يكتفي فقط بزيارات عابرة إلى مطعمه؟ عضّت على شفتيها وقالت: نعم... ثم ترددت وأضافت: ربما. وغادرت المطعم مكسورة الخاطر.

عند وصولها إلى المنزل، وجدت أمها في انتظارها، تبدو عليها علامات الترقب والذعر. حاولت أن تبدو طبيعية وهي تسألها:

- **هل تودين أن تأكلي الآن؟**

أجابت لين: **لا يا ماما، لا أريد.**

انفعلت الأم: **بل يجب أن تأكلي، لم تأكلي شيئًا منذ يومين!**

رضخت لين: **حاضر يا ماما.**

جلستا وجهًا لوجه على مائدة الطعام، تمثلان الأكل في صمت. قطع هذا المشهد سؤال الأم بلهجة قاطعة: هل قابلتِ أباكِ؟

ـ نعم.

ـ ماذا أخبرك عني؟

ـ لا شيء ماما، لم نتحدث عنكِ.

قالت الأم منفعلة: اتصلت بعمك، وأخبرني أنه كشف لكِ كل شيء ليضعني أمام الأمر الواقع. لكنه لم يخبرك! أنتِ لا تعلمين ماذا عانيت مع ذلك الرجل، ولماذا أبعدته عن حياتك.

فكرت لين في نفسها: ما رأته قبل يومين يكفي لتتخيل أي رجل كان. لكن أمها بدأت تسرد تفاصيل حياتها معه باكية، تكرر كثيرًا أنها عانت من إهماله، وأنه كان يعود سكران، يتركها في مواقف محرجة، ويتهرب من مسؤولياته. ثم قالت إنها اضطرت أن تهرب بها منه، وتقطع كل الصلات التي تربطها به كي تحافظ على حياتها.

كانت رانيا تنتظر أن تتأثر ابنتها اعترافاتها، لكن لين لم تهتز كثيرًا. على العكس، ضاق صدرها من كثرة التفاصيل، لكنها أظهرت اهتمامًا فقط لتُهدّئ أمها. بعد لحظات من الصمت، بدا وجه رانيا شاحبًا، تنظر إلى ابنتها نظرة استعطاف. مدت لين يدها، ربتت على كتف أمها، وقالت: لقد صفحت عنكِ، وسأبقى ابنتك ولن أهجرك مهما حدث.

اليوم هو يوم تخرجي. الأهم أن الحفل سيحضره أهم اثنين في حياتي: أمي وأبي... ومعه بالطبع زوجته الجديدة وأخي.

لم تنقطع علاقتي بأبي. استمررت أزوره في مطعمه، كما دعاني أحيانًا إلى بيته لألعب مع أخي الصغير، وأتصل به من حين لآخر. لكن أمي رفضت تمامًا أن يزورنا في بيتنا أو أن أبيت عنده. كنت أظنها تبالغ، لكنها بالتأكيد عانت منه ما لا تستطيع نسيانه أو غفرانه. وأنا بدوري لم أغفر لها كذبتها التي جعلتني أعيش طفولتي بإحساس اليتم، ولا غفرت له هو تركي كل هذه السنين.

مع الوقت تفهّمت أن إحساسه بالذنب والخزي منعه من البحث عني. وتفهّمت أيضًا أن أمي كانت تريد أن تحفظ لي صورة أب جيد، بدلًا من الحقيقة. لكن التفهّم شيء، والغفران شيء آخر. ما فعلاه بي ظل ندبة في قلبي... ومع ذلك، أنا ما زلت أحتاجهما في حياتي. واليوم، تحديدًا، سأتخرج وبين جانبي أمي وأبي.

الحكاية التاسعة عشر

قصة " ما يستحق "

بيروت 2016

تجلس وحدها على طاولة في أحد مطاعم فنادق بيروت، ترتدي تنورة قصيرة، تبدو بها امرأة مثيرة، وقَصّة شعر قصيرة أضفت حدة على مظهرها، كقطة شرسة التهمت أولادها توًا.

تشعل سيجارتها الثانية، رغم ضرر التدخين على أحبالها الصوتية كمطربة شابة. لكنها أقامت مع السجائر علاقة عميقة، فهي بالنسبة لها صديق وفيّ لا يتخلى عنها في أحلك أوقاتها، فكيف تتخلى هي عنه؟ هو رفيق عصبيتها، ويتحمل مزاجها السيئ.

Je suis malade… complètement malade

بدأت تدندن أغنية داليدا بصوت واهن.

دخل شاب أنيق المطعم، جلس على الطاولة المقابلة لها. انتظرت أن يتحدث إليها، لكنه لم يلتفت إليها كأنها غير موجودة. أغضبها تجاهله، أرادت أن تلقنه درسًا في الإتيكيت.

ـ إيلنا: ممكن أقعد؟

جلست قبل أن يأذن لها.

ـ هتعزمني على إيه؟ أكيد مش هيبقى قدامك بنت حلوة زيي وما تعزمهاش على حاجة!

ـ: أهلين، من لهجتك باين إنك مصرية.

ـ أيوه، أنا مصرية. اسمك إيه؟

ـ جاد... بس فيني، شو بدك مني؟

ـ أنا بكتب قصة عن واحد بينتحر في آخرها... بس محتاجة سبب تافه يخلي البطل ينتحر عشانه.

ـ لك، في حدا بينتحر مشان سبب تافه؟

ـ كل أسباب الانتحار تافهة أصلًا، مفيش حاجة تستاهل إن الواحد يضحي بحياته عشانها.

ـ شو هالحكمة كلها... ما بيبين عليكي! (ينظر سريعًا إلى ملابسها).

ـ إيه رأيك أخلي البطل ينتحر عشان حبيبته سابته، وانتحر يوم فرحها؟

ـ يعني إنتي عم تشوفي الحب سبب ما بيستاهل يموت الواحد كرماله؟

ـ طبعًا! أنا مثلًا... حبيبي سابني، وبكره فرحه. تفتكر إني ممكن أفكر في الانتحار؟ لا طبعًا. عارف أنا عملت إيه؟ قررت ألبس الفستان ده... اللي كان مانعني ألبسه. ورجعت للتدخين

تاني. عارف إنه كان متخلف؟ كان شايف إن السجائر للرجالة بس، وما يحبش يشوف الست بتدخن.

(ملامح الملل ترتسم على وجه جاد)

ـ تعرف؟ أنا غيرت فكرة القصة. هكتب كتاب للبنات عن أكتر 10 حاجات يعملوها بعد الانفصال تغيظ بيها حبيبها السابق.

يصمت جاد، غير مبالٍ بما تقوله تلك الفتاة المجنونة الفاتنة أمامه.

تستأنف إيلنا:

ـ تعرف يا جاد؟ كل الناس حذروني منه، قالولي إنه طمعان فيا.

ـ طمعان فيكي؟!

ـ آه، كان عندي مطعم سمك ورثته عن بابا. ما كنتش عارفة أديره، فسلمتهوله. الناس كانوا شايفينه ولد فقير لقى فرصة يمسك مطعم كبير. بس محدش كان شايفه بعينيّ. كانوا مش فاهمين إن الحب أهم من الفلوس. أنا كنت عارفة إنه بيحبني، وكانت عيونه دايمًا تقول كده. لو شوفت طريقته وهو بيقول "بحبك" كنت فهمتني.

ـ وبعدين شو صار؟

ـ سرقني! (تضحك بعصبية) آه والله، طلع زي ما الكل شايف، نصاب بيستغلني عشان ياخد المطعم... وأخده. (تضحك بهستيرية)

ـ هاد اللي بدو يتجوز بكره؟

ـ لا لا، ده واحد كنت بحبه قبله.

بعد نصف ساعة، شربت إيلنا كأسين من الكحول على حساب ذاك الفتى الغريب الذي ظل يصغي إليها، يفكر في أن استدراج فتاة سكرى بالحزن والكحول إلى ليلة عابرة أمر قد لا يكون سهلًا.

ـ عارف؟ أنا هابقى مطربة كبيرة جدًا، وعالمية زي داليدا. وهو هيندم عليا وهو شايفني بنجح يوم ورا يوم.

ـ صحيح... إنتِ ما قلتيلي: شو بيخلي بنت مصرية بدها تغني بلبنان، مع إن كل مطربات لبنان بدهن ينشهروا بمصر؟

لم تكن تصغي لأسئلته. كانت كلماتها لا تتماشى مع حديثه، هي فقط تقول ما يخطر ببالها.

ـ خليل كان دايمًا يقولي مشكلتي مع الرجالة إني كتاب مفتوح أي حد يقرأه... والرجالة بيحبوا الغموض.

ـ لك منه هادا خليل البطيخ!

ـ عارف؟ أنا حتى مش عايزة أكمل علاجي. نسيت أقولك إني بوردرلاين.

يسأم جاد من حديثها، فيقرر أن يكون مباشرًا:

ـ ما بدك تطلعي على البحر؟ لبنان مش كلها بيروت.

ـ آه، عايزة.

ـ أنا طالع على صيدا، راح ضلني هنيك يومين. شو رأيك تجي معي؟

ـ آه، أجي... ليه لا؟ دلوقتي هطلع غرفتي ألم هدومي وأعمل تشيك أوت وأجي معاك.

تقوم، ثم تتذكر شيئًا. تخرج قلم حمرة، وتكتب رقمها على منديل:

ـ ده موبايلي، اتصل بيا لو اتأخرت.

يبتسم جاد ابتسامة صياد أوقع بفريسته.

تصل إيلنا إلى غرفتها. تغسل وجهها، لعلها تستعيد تركيزها. تنسى تمامًا اللقاء مع جاد، نسيَت الرقم، ونسيَت الاتفاق على السفر. لم تتذكر سوى حسن، حبيبها الذي سيتزوج غدًا. الغريب أن الفكرة لم تزعجها. نظرت إلى المرآة، رأت فتاة جميلة. شعرت بالعطف عليها، ودت لو تحتضنها. فجأة شعرت أنها غالية، أنها لا تستحق كل هذا الألم. قررت في تلك اللحظة أن تحب نفسها: أن تصبح مطربة عالمية، أن تتعلم التانغو، أن تكف عن التدخين. بدأت تصلح أحمر شفاهها، وضبطت كحل عينيها. أشعلت موسيقى ورقصت. شعرت أنها تحب الحياة من كل قلبها، وأن هذه اللحظة أجمل ما عاشته.

ظل جاد ينتظرها، لكنها لم تأتِ. اتصل بها. كان الهاتف يرن.

إيلنا ترقص، لم تستمع للرنين. فجأة نظرت نحو نافذة غرفتها المفتوحة. أحست أنها تناديها. الهاتف يرن بلا توقف.

شعرت فجأة أنها تريد أن تلبي نداء النافذة... أن تقفز وتنهي كل شيء. تبخرت وعودها التي قطعتها على نفسها منذ قليل. انطفأت رغبتها في الحياة.

أخيرًا التقطت الهاتف. كان جاد يسأل عن سبب تأخرها. لم تعد تدرك مع من تتحدث. سألت سؤالًا واحدًا، وعيناها معلقتان بالنافذة:

هل هناك ما يستحق؟

الحكاية العشرون

قصة " شرف "

كان قلبي يخفق بشدة. صدرت عني بعض الحركات العصبية اللاإرادية، حاولت إخفاءها حتى لا تلحظ الطبيبة ما بي.

كنت قد أخذت قرار إجراء العملية، ولم يكن من الممكن أن أتراجع بعد أن أصبحت جاهزة. يبدو أن الطبيبة قد لاحظت اضطرابي ونظرة التردد في عيني، فسألتني إن كنت قد تراجعت عن قراري وأود الاحتفاظ بالجنين، لكنني أكدت لها أنه يجب أن أُجهضه حتى أرحمه وأرحم نفسي من نظرة المجتمع "لابن حرام"، وأن ما أفعله الآن هو أكثر ما أستطيع أن أقدمه له، فوالده لن يُقدم على الزواج بي.

أن أرحمه من الحياة قبل أن يأتي لها...

استلقيت على الفراش ومددت يدي إلى الممرضة في انتظار أن تعطيني حقنة المخدر. كانت الممرضة تنظر لي باحتقار، وكنت أرى هذا واضحاً في عينيها، لكني لم أهتم. مثلما لم أهتم بهيئة العيادة غير النظيفة التي لا تصلح لإجراء عملية طبية واحدة.

أغمضت عيني في انتظار أن تأتي الطبيبة لتقوم بدورها، وأنا أعلم مدى خطورة العملية، وأنه ربما لن أفيق مرة ثانية. لكن لا يهم، كل ما يهم هو أن أتخلص من تلك الروح التي أحملها في أحشائي حتى لا أحمل ذنب ذلك العذاب الذي ستلقاه في هذه الحياة.

... لم أدرِ كم مضى من الوقت، فُقت من العملية. كنت ضعيفة جداً وخاوية وفارغة من الداخل، وقد تسربت تلك الحياة الجديدة التي كنت أحملها في داخلي. شعرت بحجم الخسارة التي خسرتها، لكني كنت أدرك في داخلي أن هذا هو الصواب.

لم أكن أقوى على التحرك، كنت نائمة على الفراش، وأمي بجانبي تعتني بي. كنت أرى في عينيها نظرة عتاب وكأنها علمت أني أنا من أجهضت الجنين، لا أنه سقط بعدما ضربني زوجي كعادته. فاجأتني بقولها:

– كان لدي أمل كبير أن يكون ذلك الطفل سبباً في إصلاح ما بينك وبين زوجك.

أشحت عنها بنظري امتعاضاً من كلامها. أكملت حديثها سائلة:

– أسعيدة أنتِ الآن؟

– نعم.

ونظرت لها في عناد قائلة، محاولة رفع صوتي الوهن من أثر العملية:

– لن أسمح بأن يربط بيني وبينه أطفال. أسمعتِني يا أمي؟ لن أُنجِب أطفالاً لهذا الوحش أبيهم.

– اغفري يا ابنتي، اغفري له وابدئي حياة جديدة.

كانت تلك أسطوانة أمي المعتادة كلما تحدثنا عن حياتي الزوجية كما تسميها هي، لكنها بالنسبة لي ليست أكثر من سجن مؤبد.

كان الحديث مع أمي سيُرجعني إلى ذكريات أود دفنها. طلبت منها أن تخرج كي أستريح، ثم أخرجت هاتفي وبدأت أبحث في قائمة أصدقائي على فيسبوك عن اسم صديقي الجديد علاء.

كنت قد اعتدت على تلك الصداقات قصيرة المدى مع هؤلاء الشباب الذين لا أعرفهم، فقط كي أجد أحداً أتحدث معه ويسمعني. لكني مع ذلك لم أكن أخبر أحداً منهم بأي شيء حقيقي عني. عادة كنت أخلق قصصاً من الخيال عني وعن حياتي، فأُخبر كل واحد منهم بمأساة لا تمثلني في شيء، حتى أحصل على الدعم المطلوب عندما أحتاج إليه. خاصة أن حسابي على فيسبوك لا يحتوي على أي معلومات حقيقية عني ولا صورة لي.

كانت تبدأ علاقاتي دائماً بأحاديث سطحية نتبادل فيها التعارف، وكان دائماً مزيفاً من جهتي. أما الآخر فلم يكن يهمني إن كان ما يقوله عن نفسه حقيقياً أم كذباً. كل ما يهمني هو التنفيس عما أشعر به مع غريب لا يعلم عني شيئاً.

في البداية كان الاهتمام كبيراً، أسئلة عن أسباب الحزن الذي ألمّح له في منشوراتي، دعم، كلمات إطراء ومدح على شخصيتي. حتى هنا أكون مرتاحة وآخذ ما أريد من العلاقة. لكن حين تبدأ الطلبات والإلحاح في إرسال صور خاصة أو أحاديث هاتفية ثم المقابلات، أقوم فوراً بحظر الشخص كي أحمي نفسي من الوقوع في مشاكل لا أريدها.

كنت أرغب الآن في أحد يسمعني، وعلاء هو صديقي الجديد. سأبدأ الحديث معه حتى أجد بعض المواساة، دون أن أخبره طبعاً بسبب ما أعانيه.

– أهذه هي الصداقة؟ لا تسأل عن صديقك إذا غاب؟

– سامحيني يا عزيزتي، أأنتِ بخير؟ كنت أفكر في التحدث إليكِ، صدقيني، لكنك سابقتني.

– لا، لن أصدقك.

– عزة، لو تعلمي كم أنا مُهلك في العمل لعذرتِني.

(عزة ليس اسمي الحقيقي).

– ماذا عني أنا؟ لقد قمت بعملية جراحية وأنت لا تعلم.

– ماذا حدث لك؟ لقد كنتِ على ما يرام!

– شعرت فجأة بآلام في معدتي، وإذا بها الزائدة الدودية، ثم قرر الطبيب استئصالها.

– عزة... كل هذا حدث وأنا لا أعلم؟ لو كنت أعلم لما تأخرت في السؤال عنك.

استمر الحديث بيننا على هذا النحو. استرسلت في وصف آلامي وأوجاعي من العملية، وهو يقدم لي الدعم والحب الخالص من أي غرض آخر، فنحن ما زلنا في بداية التعارف. ثم أخبرني أثناء الحديث أن أسنانه تؤلمه بشدة، وأنه في حاجة لزيارة طبيب الأسنان، لكنه صارحني أنه يخشى زيارة طبيب الأسنان.

وهنا كانت غلطتي... وجدت نفسي دون أن أعي أخبره أني كنت سأكون طبيبة أسنان، وكنت متفوقة حتى السنة الثالثة، لكني لم أكمل. وكانت هذه أول معلومة صحيحة أخبرها لأحد من أصدقائي على فيسبوك. كان من الطبيعي أن يسألني عن سبب عدم استكمال دراستي، فحاولت تلفيق كذبة سريعاً، وأخبرته أن حالتنا المادية قد ساءت بعد موت والدي واضطررت أن أترك التعليم وأعمل.

لكن حتى هذه الكذبة كان بها جزء من الحقيقة. اضطررت أن أنهي الحديث. ثم فجأة تذكرت والدي. نظرت إلى صورته أمامي وشعرت بخجل شديد، حتى أني لم أستطع أن أنظر إليه في الصورة.

عاتبته في داخلي:

- **لو كنت ما زلت على قيد الحياة، ربما لاختلفت حالتي. ربما لما وافقت أمي على زواجي. ربما لوقفتَ بجانبي حتى أخذت حقي من هذا الوحش. ربما كنت أكملت دراستي وأصبحت طبيبة أسنان كما كنت تريد.**

لا أدري إن كنت أريدك أن تكون حياً حتى تساندني، أم من الأحسن أنك ذهبت مبكراً كي لا ترى ما آلت إليه ابنتك الوحيدة.

****

ذهبت إلى منزلي، أو إلى سجني بالأحرى. كان زوجي ينتظرني. كنت أعلم قائمة الممنوعات التي تنتظرني، من أول خروجي من المنزل وتبادل السلامات مع الجيران. ربما اعتبر أن وجودي في منزل أمي أثناء مرضي نزهة قمت بها، يجب بعدها أن أكتفي بها ولا أطالب بالخروج قريباً، وأيضاً عدم ترحيبه بزيارة أقاربي في بيتنا. كنت أعلم تماماً أن زوجي يضع الكثير من القيود عليّ كي يتفنن في إذلالي، وبسبب عقدة النقص التي عنده، فهو أقل مني في المستوى الاجتماعي وأيضاً العلمي. لذلك حرمني من إكمال دراستي.

ومثلما تفنن هو في إذلالي، تفننت أنا في استفزازه، وتذكيره بكل ما فعله، وأتعمد استخدام مفردات لا يستطيع فهمها حتى يسألني عن معناها، فيشعر دائماً أنه أقل مني مهما فعل. كنت أعلم أيضاً أنه على علاقات بنساء أخريات، وأنه يجد تسليته معهن، ويبقيني على ذمته فقط لإذلالي. كثيراً ما كان يلمح عن علاقاته تلك دون خجل، وكنت أتعمد أن أظهر له أن آخر ما يمكن أن أشعر به ناحيته هو الغيرة. فأنا لا ولن تربطني به أي عاطفة حتى أغار عليه، وكان يعرف ذلك، لكنه يرغب فقط في إذلالي. وكنت أبادله الإذلال سراً بعلاقاتي مع أصدقائي على شبكة الإنترنت.

كنت أعلم جيداً أن شرفي لم يعد ملكي منذ الحادثة، وأنه ملكه هو الآن، لذلك لم أشعر بأسف حيال شيء لم أملكه، بل صار ملك أكثر شخص أمقته في الوجود. مرات استفزني كثيراً حتى ألمحت له أنه إذا خانني سأرد له خيانته، فضربني ضرباً مبرحاً. لم تكن تلك المرة الأولى، وكنت أعلم أنها لن تكون الأخيرة. كنت أنظر في عينيه بتحدٍّ كل مرة يضربني فيها، وبشمئزاز كل مرة يحاول الاقتراب مني. وربما صفعته مرة أو اثنتين، وربما استسلمت كجثة هامدة مرات أخرى. وهكذا كانت تسير حياتي معه.

كالعادة، قطعت علاقتي بعلاء. لم تدم وقتاً طويلاً بسبب رغبته في أن يراني وإلحاحه المستمر كي نتحدث عبر الكاميرا، فقمت بحظره. وتعرفت على شاب جديد، أشرف. لكن أشرف كان مختلفاً عن باقي الشباب الذين عرفتهم، فلم أشعر وأنا أتحدث معه أنه يرغب في أكثر من الحديث، أو أن له أغراضاً أخرى. كان يريد صديقاً فعلاً يتحدث إليه، كان مثلي لا يود من تلك العلاقات سوى التنفيس مع غريب عما يدور بصدره. كنت أشعر دائماً معه أنه نبيل النفس، مرهف الحس، كريم الأخلاق.

بدأت أراقبه وشعرت لأول مرة أني أنا من يريد زيادة التواصل بيننا، وأرغب في أن أراه وأسمعه، لكنه لم يبادر بطلب ذلك. ماذا حدث لي؟ كنت دائماً أهرب من هذه الطلبات، لكني أنا الآن من يرغب فيها. ثم وجدت نفسي أفكر: هل لأشرف علاقات بغيري؟ هل يتحدث مع فتيات أخريات كما يتحدث معي؟ لكن ما شأني أنا؟ إنها مجرد صداقة عابرة. فهل أكون قد أحببته؟ من مثلي ليس من حقها الحب، بل فقط بعض التسلية السريعة. لكني أحببت... ويا أسفاه أحببت. ولا أعرف إلى أين يأخذني هذا الحب.

أحببت أشرف ووددت لو أخبره حقيقة قصتي، فقد تعبت من الزيف. لكني كنت أعلم أنه لا أمل لحبي هذا. هل أقطع علاقتي به؟ هل أخبره الحقيقة ومن ثم أقطعها؟ لا أعرف. أخرجني من أفكاري صوت باب الشقة وهو يفتح. وجدت اثنين من عمال الورشة يحملان زوجي، يخبراني أن إحدى الآلات الحادة قد سقطت عليه. ذهب العمال وبقي زوجي على الأريكة لا يستطيع تحريك ساقيه. نظرت إليه، كان يئن ويتألم.

صرخ في وجهي قائلاً:

– هل ستظلين تحدقين إليّ ببلادة هكذا؟ أحضري طبيباً يفحص قدمي.

– لا.

– ماذا تقولين؟ هل جننتِ؟

ثم أعاد طلبه بإحضار الطبيب، لكني استجمعت قوتي ونظرت إليه بعد أن أخذت نفساً عميقاً، قائلة بإصرار:

– لا، لن أحضر أحداً.

أدرك زوجي أني جادة. أطلق السباب عالياً، فخشيت أن يستمع إليه الجيران. حاول أن يخرج هاتفه المحمول لكنه لم يستطع. ابتعدت عنه حتى لا تطولني يداه. كنت أراه لأول مرة ضعيفاً عاجزاً عن الحركة، متألماً. تذكرت حينها تلك الليلة، تذكرت وضعي معه. كان يشبهني كثيراً في تلك الحالة، كنت أصرخ وأستغيث مثله الآن. كان يستمع إلى صراخي مثلما أنا الآن أستمتع بصرخاته. أخذت نفساً طويلاً. سأحاول أن أكون مثله، لن أحضر طبيباً... على الأقل اليوم.

حاول أن يتحرك نحوي، ورغم ألمه كاد ينجح أو هكذا خُيّل إلي. وجدته يحاول أن يتناول هاتفه المحمول لكنه كان قد كُسر، وكأن القدر كان حليفي. أردت أن أهرب من قبضة يديه التي ظننت أنها كادت تُمسك بي، فهربت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب خلفي جيداً. بعد قليل هدأت ثورته، لكنه ظل يئن، ثم هدأ. لا أدري ماذا حل به.

لم يأتني نوم تلك الليلة. أخرجت هاتفي لتضييع بعض الوقت. أرسل أشرف رسالة يسألني عن أحوالي. فكرت أن أجيبه إجابتي المعتادة، لكن حديثه لي هذه الليلة بالذات كان له أثر كبير في نفسي. سأخبره بالحقيقة كاملة. لم أستطع أن أُخرج تلك الفكرة من رأسي. كنت أود أن أحكي له، أن أحكي الحكاية الحقيقية الكاملة لأحد كي أشعر أن حملاً ثقيلاً انزاح من على قلبي.

أخبرته أني أود إخباره بسري. رحب بالفكرة، لكن كان الكلام ثقيلاً على نفسي. وجدت نفسي دون أن أفكر أسأله سؤالاً خطر في ذهني فجأة:

– هل القتل حرام؟ قبل أن تجب... أنا أعلم أن القتل حرام، لكن القصاص حلال... أليس كذلك؟

أجابني

- **نعم، في انتظار تفسير سؤالي.**

أكملت قائلة:

- **هل مفهوم القتل يجوز على الجسد فقط؟**

– ماذا تقصدين؟

– أليس قتل الروح جريمة أيضاً يجب القصاص لها؟

انتظرت إجابته لكن طال صمته، فأكملت قائلة:

– أنت كإنسان ماذا ينقصك لتكون إنساناً؟ فقط طعام وشراب؟ أبهذا فقط تكون إنساناً؟ ماذا عن الأمل؟ الحب؟ الإرادة الحرة؟ القدرة على الأحلام؟ الشرف؟

انتظرت منه رداً لكنه صمت. نظرت لأتأكد أنه ما زال متواجداً على الشبكة، وأظهرت العلامة الخضراء ذلك، فأكملت:

– أنا تعرضت لحادث، ومن ثم فقدت كل شيء: خطيب كنت أحبه، دراسة لم أكملها، احترامي لنفسي، احترام المجتمع لي. أنا فقدت حتى الأمل. أحيا كل لحظة بلحظة، لأني لا أملك أحلاماً للغد. هل تُسمي هذه حياة؟ أنا مجرد جسد متحرك يحمل امرأة ميتة في داخله. أليس هذا هو قتل الروح؟ أليس أثقل من قتل الجسد؟

أرسلت هذه الرسالة وأجهشت بالبكاء. أرسل بعدها يسألني ماذا بي، عاجزاً عن فهمي. لم أستطع الرد. بكيت بحرقة وأنا أتذكر تفاصيل الحادث، منذ أن تزوجت وأنا يومياً أتذكر الحادث بتفاصيله. لا أدري ماذا حدث، لكني نمت، ثم استيقظت في اليوم التالي.

وكأن الذاكرة فجأة عادت لي. زوجي في الصالة، نائم على الأريكة، ساقه معطوبة. يجب أن أخرج. ربما يأتي عمال الورشة اليوم بطبيب، وربما لا... لا يهم.

ذهبت إلى المطبخ، أعددت وجبة تناسب زوجي المريض. قدمتها إليه وأنا أقيس درجة حرارته، يبدو أنها مرتفعة قليلاً. نظر إليّ في دهشة قائلاً:

– تتصرفين كزوجة تحب زوجها.

نظرت له باحتقار مجيبة:

– بل أنا أحب رؤيتك تتألم عن قرب.

وكأنه تذكر قدميه، نظر إليها بألم. بحركة لم أخطط لها، ركلت ساقيه الممدودتين بقدمي. صرخ من الألم. وقبل أن يتوقف عن أنينه من وجعي ركلتي، اقتربت من وجهه الذي ارتسمت عليه علامات الألم بوضوح، وقلت له وأنا أنظر في عينيه:

– أتعرف؟ لو رآك أي شخص الآن وأنت تتألم ستثير شفقته لا محالة، أما أنا فأنا الوحيدة التي لن تتألم لألمك.

شعرت أنه يسحب يديه ليصفعني، لكني تراجعت في الوقت المناسب. ذهبت إلى المطبخ وقلت له إنني سأعود لأخذ الأطباق وهي فارغة. تلذذ بأكل زوجتك التي "تحبك". وضحكت ساخرة عند قولي آخر كلمة.

كان الألم ينمو بداخلي كل تلك الفترة الماضية لينتج عنه كل هذه القسوة. لكني كنت أعلم جيداً أن كل شيء يجب أن ينتهي. يجب أن أضع كلمة النهاية على تلك المعاناة التي نحياها أنا وهذا المجرم الذي منحه المجتمع والقانون لقب زوجي. كل يوم. عزمت على تنفيذ ما نويت عليه منذ فترة، وقد حانت الفرصة لتنفيذه. أرسلت رسالة لأشرف لأخبره بكل شيء.

****

أشرف حبيبي

هذه أول مرة وربما الأخيرة التي سأمنحك بها هذا اللقب. أنت الشخص الوحيد في هذا العالم الذي أدانني ومنحني حبًا وحنانًا في فترة لم يمنحها لي أحد. كنت أود لو ألقاك في ظروف أخرى، في عالم أكثر أمنًا وعدلًا، لكن هذا العالم ظالم كثيرًا يا أشرف.

سأحكي لك قصتي:

أنا طالبة جامعية في الصف الثالث في كلية طب الأسنان. توفي أبي وكنت مخطوبة لشاب أحبه. كنت أقطن بأحد الأحياء الشعبية. في يومٍ مرضت أمي كثيرًا، كانت تصرخ من الألم، لم أستطع أن أحتمل، فنزلت لأحضر لها الدواء الذي تحتاجه. كان الوقت متأخرًا. رآني وأنا عائدة إلى البيت فهجم عليّ. قاومت بشدة، قاومت حتى آخر قطرة دم سالت من جسدي. اغتصبني ذلك الوغد. تعالت صرخاتي مجلجلة، لكن لم يأتِ أحد. جاءوا متأخرين جدًا.

أفقت داخل مستشفى، كلي جروح وأنزف. أمي بجانبي تبكي بحرقة. عندما استعدت كامل وعيي رأيت نظرات الشفقة من الأطباء والممرضين وصديقاتي في الجامعة اللواتي أتين لزيارتي. حتى تماثلت للشفاء، تحولت نظرات الشفقة إلى ازدراء، ثم إلى احتقار لي. لا أدري لماذا رفضوني وأنا الضحية. بدأ الجميع يعاقبني. أرسل خطيبي الدبلة إلى أمي. بدأ أقاربي يبتعدون عني دون سبب واضح. حتى أمي كانت تنظر إليّ وكأني خيّبت آمالها.

كان التحقيق في القضية مستمرًا. قال المتهم إنه على استعداد أن يتزوجني، وحينها لن تكون هناك قضية. رفضت في البداية بشدة. ربما لو كان أبي ما زال حيًا لكنت صمدت فترة أطول، لكن أمي أصرت على زواجي منه. كانت ترى فيه آخر فرصة لي في أن أتزوج. لا أدري كيف طاوعتها، لكني وافقت.

أصبح هذا الوغد زوجي، له عليّ كل الحقوق والواجبات. أصبحت أراه أمامي متذكرة ما فعله بي وما فعله المجتمع بي.

وأنت تقرأ هذه الرسالة سأكون قد أنهيت كل شيء. أنا أعلم أن الله سيغفر لي خطيئتي. أعلم أن القتل حرام، لكن القصاص حلال، وأنا أقتص لنفسي منه. كان يجب أن يكون على حبل المشنقة لا بجانبي يوميًا على الفراش.

تأملته جيدًا وهو يأكل. كان يأكل بشراهة. لا، يا عزيزي، أنا لم أضع شيئًا في الطعام. أتظن أني سأقتله؟ أنا أود ذلك بشدة، لكني لم أستطع قتله. ربما أن أترك الأمر لشبحي أن يفعل ذلك ويعذّبه باقي حياته أفضل. أنا سأقتص منه ومن أمي ومن المجتمع. سأُلقي بنفسي من شرفة منزلنا، وأراك في عالم جديد أكثر إنصافًا.

الحكاية الحادية والعشرون

قصة " الحادي والعشرين من يونيو "

الحادي والعشرين من يونيو

كان يجاهد لينسى هذا التاريخ، حتى قام بإخفائه من الفيسبوك حتى لا يضطر لاستقبال التهاني من أصدقائه. فهو على عكس الجميع يكره أن يتذكر الناس يوم مولده، ويكره أن يتذكره هو، فقد ارتبط ذلك التاريخ عنده بالفقد. منذ فقد أمه التي فارقت الحياة عند قدومه، امتنعت أسرته عن الاحتفال به لسنوات، لأن ذكرى مولده تصادف ذكرى وفاة أمه. أراد أن يُصلح علاقته بهذا التاريخ، فجعل يوم زواجه يصادف يوم ميلاده، ولكن كان للقدر رأي آخر؛ فبعد سنة واحدة حلّ الطلاق في نفس التاريخ، ويأتي اليوم مصاحبًا لفقد جديد، فقد أقرب شخص له في السنوات الأخيرة. فَضَّل أن يبكيه في بيته حدادًا على روحه الطاهرة.

يسمع صوتًا قادمًا من الخارج. ينظر من ثقب الباب فيرى صبية حسناء، يبدو أنها لم تكمل العشرين عامًا، تحاول فتح باب شقة جاره، لكنها لا تفلح. فترتمي بجسدها الضعيف على الباب في محاولة لفتحه، ثم تجد أن محاولاتها لا تجدي، فتخرج من حقيبتها شيئًا لا يدري ماهيته. يبدو أنها تحاول جرح نفسها. هنا كان لا بد أن يتدخل، فهذه الصبية تحاول الانتحار أمام شقة جاره. خرج من شقته، أمسك بيدها في محاولة منه لتكتيفها ومنعها من قطع شريان يديها. قامت بحركات هستيرية للإفلات من قبضته، ثم بدا له أنها تشعر بصعوبة في التنفس. حاول أن يحرر معصميها من قبضته حتى يتسنى لها أن تتنفس بشكل أفضل. وبعد أن خارت قواها، لن تعاود محاولة جرح نفسها. ما إن أفلتها حتى استلقت على الأرض فاقدة الوعي. لم يجد أمامه من حل سوى نقلها لشقته. جرّب كل الطرق التي يعلمها لإعادة وعيها حتى بدأت تفيق وتعي ما حولها. أحضر لها كوب ماء؛ شربت منه ثم نظرت إليه بدهشة، ثم سألته بصوت بالكاد يُسمع:

ـ أنا فين؟ وأنت مين؟

تفحصت المكان بنظرها؛ يوجد العديد من لوحات الرسم في الشقة، ويبدو كل شيء عشوائيًا وغير منظم. كشفت بنظرها الشرفة فوجدت بها قفص عصافير وطائرًا لم تتعرف عليه في البداية، ثم أدركت أنه ببغاء. وأمام التلفاز قطتان، وبداخل إحدى الغرف المفتوحة أمامها رأت قردًا صغيرًا. ثم شاب نحيل يقف أمامها، له لحية خفيفة وهالات تحت عينيه، تقول إنه لم يأخذ قسطًا كافيًا من النوم.

مدَّ لها كوب ماء وطلب منها أن تشربه. تناولته في حذر، تحملقت في ملامحه قليلًا ثم بدأت تشرب. نظر إليها وسألها:

ـ أنت مين؟ وليه كنتِ عايزة تموتي نفسك؟ وليه هنا قدام شقة أدهم؟

بدأت قطرات الندى تسيل على خديها. بدأ هو يدقق النظر إليها، بدا له أنه رآها من قبل.

ـ أنا ماكنتش عايزة أموت نفسي... أنا كنت عايزة أقتله هو.

ـ أنا افتكرت... أنا تقريبًا شوفتك أنت وأدهم مرة أو مرتين على السلم أو في الأسانسير.

نظرت له ريم في محاولة لتتذكر متى يمكن أن تكون رأته من قبل. ربما عندما كانت تجيء لأدهم منزله، التقت به صدفة على السلم أو عند المصعد. صمتت دقيقة ثم قالت:

ـ ليه ما سبتنيش أموت نفسي؟

ـ عشان ما تجيبيليش مصيبة... بصي، إنت شكلك صغيرة، يمكن عمرك ما يطلعش عشرين سنة. أنا النهاردة عيد ميلادي (يبتسم ساخرًا) وكملت أربعين سنة يعني قدّك مرتين. وبقولك إن أي حاجة خسرتيها تقدري تعوضيها، خاصة لو اللي خسرتيه مشاعر.

ثم نظر إلى عينيها مباشرة وقال جملته الأخيرة:

ـ أدهم مش آخر راجل في الدنيا.

وضعت كوب الماء من يديها، ونظرت إلى عينيه مباشرة وقالت بصوت مكسور، يبدو أنه يتألم وغاضب في آن واحد:

ـ عايزة أقتله... من وقت ما عرفت بخبر فرحه وأنا بفكر في الطريقة اللي ممكن أقتله بيها... أغرس سكينة في صدره أو أخبطه بالعربية. للدرجة فكرت أروح فرحه وأقف قدام عروسته وقدام معازيمه كلها وأقول لها إني أحق منها بالمكان ده، وأضربه كف وأبوظ له الفرح. مشكلتي الوحيدة إني وثقت فيه زيادة عن اللزوم... إني حبّيته للدرجة إني سلّمت له نفسي... إني كنت بتخيل نفسي مكانها في اليوم ده. كل مرة هيحضنها فيها أنا هكون أحق بالحضن ده منها.

تنهدت تنهيدة طويلة ثم بدأت في النحيب:

ـ النهاردة خطرت في بالي فكرة إني أروح وأقتل نفسي في شقته، عشان يعرف إنه لما بدأ حياته مع عروسته في واحدة ماتت بسببهم. عشان يعيش طول عمره بالإحساس بالذنب والندم.

ثم بدأت في البكاء. نظر إليها عمر وأحس نحوها بالشفقة وقال لها:

ـ على فكرة، أنا كمان زيك خسرت النهاردة أهم حد في حياتي.

نظرت إليه بعينين دامعتين، ثم أكمل قائلًا:

ـ كان أقرب حد ليا، هو الوحيد اللي كان بيحس بآلامي وحزني ويواسيني، بس النهاردة ما بقاش موجود وسابني لوحدي. وأنا حرفيًا ماكانش ليا غيره.

بدأت ريم تنتبه له ولكلامه، ولاحظت في صوته نبرة حزن حقيقي، شعرت أنه مثلها يقاسمها مشاعر الفقد، فسألته ريم:

ـ هو كمان خانك واتخلى عنك؟

ـ هو الوحيد اللي ما كانش يعرف يخون.

ـ أومال مشي وسابك ليه؟

(يجيبها بألم)

ـ عشان مات.

ـ أنا آسفة... الظاهر صاحبك ده كان عزيز عليك أوي.

ـ ده مش واحد صاحبي... ده كلبي.

ـ نعم!!

نظرت إليه مدهوشة، ثم خطرت في بالها فكرة أن أدهم فعلا لم يكن أكثر من كلب، فضحكت ضحكة خفيفة لفكرتها. رأى عمر ابتسامتها تلك، فذكّرته بسخرية زوجته السابقة أحلام منه ومن مشاعره حيال حيواناته، وكيف أنها لم تفهم طبيعة العلاقة الخاصة التي تربطه بهم.

نظر إليها عمر وقال لها بلهجة صارمة:

ـ تقدري تمشي دلوقت... وياريت لو حابة تنتحري تاني، يكون في مكان بعيد عني.

لم تفهم سبب تقلب مزاجه المفاجئ. بدأت تتحفص مرة أخرى شقته التي هي أحق بلقب حديقة حيوان أو مرسم. وقعت عيناها على إحدى الجرائد على الطاولة، ولمحت صورته. التقطتها وبدأت تقرأ سريعًا، بدا أنه مقال نقدي عن لوحاته. لكنها لم تستطع أن تميز هل المقال يمدح أو يذم لوحاته، لكن على الأرجح أنه يمتدح، وإلا لما كان احتفظ بجريدة تذم رسمه. التفتت إليه وقالت:

ـ أنا مش فاهمة الكلام اللي مكتوب في المقال عنك... أراهنك إذا اللي كاتبه فاهم هو كاتب إيه.

انتظرت منه ردًا لكنه زفر بضيق. ابتسمت ريم بسخرية وقالت:

ـ يعني اللوحة اللي هناك دي... أنا مش شايفة غير إنها شوية خطوط مالهاش أي معنى. يقوم الصحفي يكتب عنها مقال ويقول: "ما أدري اللوحة دي جسدت وجع أبصر إيه، وعبرت عن مكنون مدري إيه"، وشوية كلام عشان تحسوا إنكوا مثقفين وعميقين وإحنا اللي في القاع.

ارتفع صوت ريم في جملتها الأخيرة، ثم تمشت باتجاه لوحة أمامها، نظرت إليها بتعمق ثم التفتت إليه بسخرية وقالت:

ـ يعني شوية الخطوط دول اللي مالهمش معنى ممكن يعبّروا عن وجعي؟

ثم ضحكت رغم القهر المصاحب للضحكة. أعجب عمر بضحكتها، وتحرك نحوها وقال بصوت حنون:

ـ مش لازم تمشي بقى... الوقت اتأخر.

ـ لا مش لازم... محدش هيقلق عليا. أمي من وقت ما عرفت بعلاقتي بأدهم وهي قررت تقاطعني، بتتجاهل وجودي تمامًا. يمكن بتتمنى إني أموت، وأنا كنت ناوية أموت نفسي النهاردة بس إنت منعتني.

قالت جملتها الأخيرة وبدأت تبكي.

يقترب منها عمر ويخبرها بصوت حنون أن لا أمّ تتمنى موت ابنتها مهما حدث. كان هو لا يعرف حنان الأم، فأمه تركته وحيدًا في الحياة، لكنه كان يفقه الأمهات كما لو كانت له أم حنون، أو كما لو كان هو نفسه أمًا يومًا ما.

بطريقة ما أقنعها بالعودة إلى أمها، وأن أمها ستسامحها، وأن عليها أن تكمل دراستها، وأن أدهم ليس سوى محطة واحدة في حياتها. وفعلت، رحلت عن منزله، لكنها لم ترحل عن حياته، بل بدأت علاقتها تتوطد معه شيئًا فشيئًا.

لم تنقطع بينهما الاتصالات، أصبحت تخبره بكل كبيرة وصغيرة في حياتها، وأصبح لها بمثابة أخ أكبر. أخبرته كيف عادت علاقتها بوالدتها طبيعية، وكيف تناست موضوع أدهم، وكيف بدأت تأخذ خطوات جدية نحو حلمها أن تصبح "موديل"، بعيدًا عن استغلال أدهم وأشباهه من مخرجي الإعلانات لها.

لكن... أكان حقًا يكتفي بدور الأخ الأكبر الذي يلعبه في حياة ريم؟

وهل اكتفت ريم بكونه الناصح الأمين لها؟

الإجابة لا.

فهو لاحظ كم مرة غارت ريم عند رؤيتها أي واحدة تجمعه بها صداقة أو علاقة عمل، لكنها أخفت غيرتها. وهو نفسه ضبط قلبه متلبسًا بالسعادة حين شعر بغيرتها عليه، وبالاهتمام الخاص الذي تمنحه له، وبأن ريم الشخص الوحيد الذي يملأ وحدته. إذن ما الذي يمنع أن تكون بينهما علاقة جدية؟ أهو فارق العمر الكبير؟ أم أنه لا يستطيع أن ينسى أنه ليس أول رجل في حياتها؟

أدرك فجأة أنه أحبها دون أن يدري، وأنه الآن يتعذب لأنه أحبها. كان صراعًا مريرًا بين حبه لها وبين عقدته كأي رجل شرقي يريد أن يكون الرجل الأول في حياة حبيبته. امتد صراعه لعامين وهو محافظ على علاقته بريم كصديقين، لكن كلاهما كان يعلم أن الآخر يحبه. حتى أتت ريم له في زيارة وأخبرته أنها ستسافر للخارج.

ـ أنا خلاص قررت، هسافر. هناك الفرص كتير.

ـ حلو.

ـ خلاص، مش عايزة أعلق حياتي على راجل أيًّا كان. هشتغل وأعتمد على نفسي.

ـ رائع.

ـ حتى أدهم بيحاول بقاله مدة يكلمني، بس أنا مبردش عليه.

- كويس.

بكلمات مقتضبة كان يخفي ألم رحيل ريم عنه.

نظرت إليه وتأملته كثيرًا في صمت متبادل بينهما، ثم همّت بالخروج.

ناداها عمر قائلًا:

- ريم، أنا بحبك.

هربًا من لعنة الفقد اختار يوم ميلادها بدلًا من يوم ميلاده ليعرض الزواج عليها، في محاولة منه لخداع القدر. رتّب كل شيء ليكون اليوم كاملًا. قام بحجز جميع طاولات المطعم، وأخبرها أنه يريد الاحتفال معها بعيد ميلادها. رتّب الأمر مع إدارة المطعم: بمجرد أن يخرج الخاتم ستبدأ الموسيقى بعزف أغنيتها المفضلة. طلب منها أن تحضر بفستان أنيق للسهرة.

وها هي قد أتت، ترتدي أجمل فساتينها، تبدو كأميرة من الأميرات. يشعر أن جمالها اليوم زائد، وكأن هالة خاصة تحيط بها. جلست أمامه، تأمل عينيها جيدًا، كانت تحمل حزنًا غير متوقع. أوهم نفسه أن ذلك غير حقيقي. لا يدري كيف يفتح حديثه معها، تحسس الخاتم في جيبه جيدًا.

تنهدت هي أمامه وقالت له:

- في حاجة عايزة أقولك عليها.

- لا، لو سمحت، النهاردة بالذات أنا اللي عندي حاجة لازم أقولك عليها.

تحسس الخاتم في جيبه ثانيةً وابتسم، ثم نظر إلى عينيها مرة أخرى، فرأى بهما حزنًا يراه لأول مرة. لم يهتم، وحاول أن يقول ما يود قوله:

- بصي، أنا كنت محضر كذا جملة عشان أقولهم لك في اللحظة دي، بس أنا مش فاكر منهم ولا جملة دلوقتي.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال وهو مرتبك قليلًا:

- أنا في العادي مش بعرف أتكلم... ريم، أنا بحبك وعايز أتجوزك.

توقع منها أن تبادله الارتباك، أن تضحك بشدة غير مصدقة ما سمعته. لكنها لم تفعل. ظلت صامتة لبضع ثوانٍ. مد يده في جيبه ليخرج الخاتم، لكنها بدأت تتحدث بصوت يقطعه نحيبها:

- أنا احتمال يكون عندي سرطان في الثدي.

أخرج الخاتم ووضعه على الطاولة، وعزفت الموسيقى أغنيتها المفضلة، لكن لحنها لم يكن سعيدًا كما اعتاد أن يسمعه، بل اكتسب اليوم نغمة حزن جديدة.

أمام قبر ريم، ومعه كلبه الذي اشتراه معها، يضع الورود على قبرها، ويعتني بوالدتها مثلما طلبت ريم منه قبل موتها. بعد زواج امتد لعام واحد فقط، قضى معظمه متنقلًا بها بين المستشفيات، رحلت عنه في الحادي والعشرين من يونيو. ومنذ ذلك اليوم يجاهد هو لينسى هذا التاريخ... التاريخ الذي ارتبط دومًا بالفقد.

الحكاية الثانية والعشرين

قصة "سم قاتل"

هناك طرق عديدة للموت، فربما تموت في حادث سير، أو ينقلب بك القطار، أو تسقط بك الطائرة، أو يبتلعك البحر في أعماقه، أو في زلزال مدمّر، أو بمرض خبيث، أو نوبة قلبية مفاجئة، لكن تظل هناك طريقة واحدة للموت لن تبدو واضحة أمام عينيك، وهي الزواج؛ فالزواج لن يقتلك دفعة واحدة، بل سيقتل كل شيء فيك أولًا قبل أن يقتلك.

إن الزواج عبارة عن سُمٍّ نتجرّعه يوميًا، لكنه بطيء المفعول جدًا، يستمر معنا حتى نموت.

ففي أحد أفلام الأبيض والأسود القديمة، كانت تتردد جملة: "لا تشرب الدواء... الدواء فيه سُم قاتل" طيلة الفيلم، وذات الجملة تنطبق على الزواج؛ "لا تقترب من الزواج... الزواج فيه سُم قاتل."

هذا ما كانت مريم تحدّث به نفسها قبل أن تمضي عقد قرانها على أيمن.

في البداية نتبادل الأفكار والأغاني والنظرات والابتسامات والهمسات وكلمات الغزل واللمسات الرقيقة والقبل، وتستمر محادثاتنا الهاتفية ساعات، ونجهّز منزلنا الجميل قطعةً قطعة، حتى تأتي اللحظة المحتومة، وينتهي حفل الزفاف ويُغلق علينا باب واحد.

تلتقي نظرات أعيننا وكأننا نقول: "نعم، لقد تزوّجنا."

ومن ثم تبدأ الحرب.

إن الزواج كمؤسسة يؤمّن للإنسان الكثير من احتياجاته، والجميع يُقدم على الزواج طمعًا في تسديد بعض هذه الاحتياجات.

فهناك من يتزوج بحثًا عن الاستقرار، أو من ترغب في تكوين أسرة صغيرة، أو ذاك الشاب الذي يرغب في ممارسة الجنس بشكل شرعي، أو تلك الفتاة الثلاثينية التي ترغب في التخلص من شبح العنوسة، أو الفتاة الرومانسية التي تحلم بقصة حب في إطار الزواج حتى تضمن أنها ليست علاقة عابرة، أو ذلك الذي لا يستطيع خدمة نفسه ويفكر في زوجة تخدمه، أو الأرمل الذي هزمته الوحدة ويبحث عن الأنس.

كلها أسباب تدفعنا للزواج، لكن لا أحد يصرّح بأسبابه الحقيقية عندما يتزوج.

إننا جميعًا نلوذ بالزواج، ومن ثم نغرق فيه.

أما أنا، مريم البنداري، فقد تزوجت وأنا أبحث عن شيء مختلف، فقد كنت أبحث عن الاستقلالية.

بعد وفاة والدي، استولى عمي على ميراثنا لأنه لم يكن لنا إخوة صبيان، فكان لعمي النصيب الأكبر من مصنع أبي الذي تولّى إدارته، ولم نكن أنا أو أمي أو أختي نفهم في شيء من الأعمال التجارية حتى نمنع سرقة عمي لنا بحجة تسديد الديون التي لم نكن لنسمع عنها شيئًا لو كان والدي موجودًا.

ومن ثم أصبح عمي يتدخل في كل شيء لأننا لا نملك أن نستقل عنه ماديًا، ولم يكن أمامي غير الزواج لتحقيق ذلك الاستقلال الذي أحلم به.

تعرفت على أيمن، شاب وسيم مهذّب من أسرة محافظة، كنت أحادثه عن أحلامي الكثيرة وعن حلمي في الاستقلال، وكان دومًا يساندني. وجدت فيه الفارس الذي طالما انتظرته كي يخلّصني.

هذه كانت أسبابي للزواج، لكن ترى ما هي أسباب أيمن؟

كانت خطبتي بأيمن قصيرة جدًا، وكان يبدو عليه أنه يحبني، أنه يحبني لا شك في هذا، لكن حبه لي لا يختلف عن حبه لساعةٍ ثمينة يودّ شراؤها، أو عن تحفةٍ يودّ أن يقتنيها في منزله.

أثناء ذلك كله كنت أفتش أنا عن أسباب أيمن للزواج.

إنه يسمعني كلمات عاطفية دائمًا، ربما يريد أن يحيا قصة حب ملتهبة.

لا بأس، سأكون بطلة الفيلم الرومانسي الذي يصنعه خياله الحالم.

وبعد مدة أصبح يبعث لي تلميحات جنسية، إنه يبحث عن اللذة إذًا، يجب عليّ أن أهتم بجسدي أكثر.

ثم أخبرني بأكلاته المفضلة، كأنه يذكّرني بواجبي كزوجة له، يجب أن أعدّ نفسي جيدًا كي أكون ربة منزل جيدة.

انتهيت من الاستعدادات الخاصة بي، والآن أصبحت جاهزة للزواج.

الجولة الأولى: "حرب الاستنزاف"

ينتهي شهر العسل سريعًا، ينتهي انبهارنا بكل جميل فينا، ويبدأ الوجه الحقيقي للزواج في البروز.

نسدد إلى بعضنا تلك الطعنات الخفية التي لا تصيب أجسادنا بل جهازنا العصبي، والبقاء للأقوى.

إنها الحرب اليومية:

"دعني أغيرك... لا، بل أنا من سأغيرك!"

_ أيمن: مريم... مريم، اصحي، أنا جعان!

_ مريم (بصوت نصف نائم): ما تاكل... أعملك إيه؟

_ أيمن: هتعمليلي إيه؟ حضّريلي الأكل.

_ مريم: عايزني أصحى مخصوص عشان أصب الأكل في شوية أطباق وأسخّنهم؟

_ أيمن: والله العادي تعملي كده لجوزك.

زفرتُ بنفسٍ عميق، منتظرةً أن تنتهي تلك الجولة.

ومن ثم توالت الجولات...

.....

= أيمن، **ممكن تاكل من غير صوت؟ مش قادرة أستحمل الصوت ده!**

_ مريم، **إنتِ ليه لابسة البلوزة الشفافة دي؟ ما إنتِ عندك جوا حاجات حلوة ومقفولة، غيريها، مش هينفع ننزل كده.**

= أيمن، **كام مرة أقولك اغسل بُقّك قبل ما تبوسني؟ خصوصًا وانت آكل بصل!**

_ في حد يعمل اللي عملتيه ده؟ كل دي فلوس في شوية كريمات للشعر والبشرة؟ إيه يا شيخة!

.....

كان كلٌّ منا يوجّه الضربات للآخر معتقدًا أن الآخر سوف يُسلّم في نهاية الأمر، وأنه حتمًا سيتغير.

سأخبره مرة أخرى بما أريد وسيتغير، ها قد شارفت على تغييره...

لكنّك تدرك أن الآخر لا يتغير، وتستمر حرب الاستنزاف اليومية.

ربما تسأل نفسك: لماذا يتحمّل الأزواج مشقة هذا كله؟

حسنًا، سأخبرك.

الزواج يتطلب منا الكثير والكثير من ساعات العمل في النهار، لكننا نتحمل هذا كله من أجل نشوة المساء.

نعم، إنه الجنس الذي يجعلنا نقبل عبء الزواج.

ربما تعتقد أن الجنس يهم الرجال في الدرجة الأولى والنساء بالعاطفة، لكن العاطفة القوية تقود النساء إلى الجنس في النهاية.

إن الرجل والأنثى، خاصة في المجتمعات المحافظة التي لا تسمح بالعلاقات خارج الزواج، يعيشان عمرهما من وقت أن يولدا حتى يتزوجا في العشرين أو الثلاثين وهما بداخلهما شكٌّ.

تشُكّ الأنثى في أنوثتها، ويشكّ الرجل في رجولته، حتى يجد كلٌّ منهما زوجه الذي معه، فتتأكد الأنثى من أنوثتها، والرجل من رجولته.

أهمية الجنس ليست في اللذة نفسها، بل في القبول الذي يقدمه الآخر لك عندما يقبلك عاريًا أمامه.

ومن ثم تبدأ باقي الجولات بقوة.

**

حرب "الصراع على السلطة"

إنها حرب ضارية بين الأزواج؛ الرجال يعتقدون أنهم من يجب أن يتولّى القيادة وصنع القرارات لأنهم أصحاب السلطة الاقتصادية وذوو الخبرة نتيجة احتكاكهم بالحياة العملية، وجزء من رجولتهم يرتبط بذلك، بينما ترى النساء أنهنّ يجب أن يتخذن القرارات أيضًا لأنها حياتهن.

لكن نساء كثيرات — ومن بينهن أنا — لا يرغبن حقًا في المشاركة في اتخاذ القرارات لأنهن لا يرغبن في تحمّل المسؤولية التابعة لذلك.

ولأنني أنا وأيمن كنا على قدرٍ من الثقافة والتحضّر، لم تُؤخذ القرارات الهامة بالطريقة الديكتاتورية القديمة، بل كانت هناك ديمقراطية مزيفة يتخذ فيها أيمن القرارات ثم أوافق أنا.

وإن حدث واختلفنا، يقوم أيمن بالتأثير عليّ، فأخضع له مستسلمة.

كنت أعلم أنني أمام أيمن سأُهزم حتمًا أمام خبرته بالحياة التي أفتقدها، وسيطرته المالية على البيت. لذا تركت له زمام الأمور في الشؤون الخارجية، ومن ثم قمت أنا بالسيطرة على نفسي أكثر.

يحكم قبضته على البيت، وأحكم قبضتي على قلبي.

يجب أن يظل قلبي في يدي، لا يميل له، لا يصدقه.

إنه يتحكم في كل شيء من حولي، ولا يجب أن أعطيه قلبي أيضًا، لا يجب أن أصدّق كلماته وأترك نفسي لحبّه

بعد أشهر من الخلافات الزوجية غير المبرّرة بالنسبة لوائل، وترك مروة للمنزل فجأة، قرر وائل العبث بأشيائها حتى وجد تلك الأوراق المتناثرة، قصة بعنوان "سم قاتل".

توقف أمامها كثيرًا، وحينما قرأ الأوراق، شعر أنها أشبه بمذكرات وآراء شخصية تدونها مروة على لسان بطلتها مريم البنداري، وأن أيمن هو الاسم الذي اختارته له.

بعدها تذكّر تصرفات مروة غير المفهومة له.

كانت مروة في البداية فتاة لطيفة مهذبة، تُحسن اختيار كلماتها وملابسها.

أُعجب بها وائل وحاول التقرب منها، ثم صرّح لها بحبه، وهنا تغيّر كل شيء.

أصبحت الفتاة اللطيفة المنطلقة فتاة صامتة هادئة، فظن وائل أنها لا تريده، وقرر الابتعاد عنها فترة، لكنها بدأت تلاحقه، فظنّ أنها تحبه، وتقدّم لخطبتها فوافقت.

لكنه لم يفهمها يومًا؛ يومٌ تكون فيه سعيدة منطلقة تعبّر عن مدى حبها الكبير له، ويوم آخر تكون فيه حزينة مهمومة حتى كاد يظن أنها مرغمة على الزواج منه.

ظن وائل أن هذا كله سيتغير بمجرد أن يتزوجا.

تزوجنا بالفعل، ومن المضحك أن مروة، التي ترى أن الجنس هو ما يتزوج الناس من أجله، لم تكن راغبة فيه، بل ظلت مدة طويلة تخشاه وتؤجّله.

لكن الزواج لم يكن نهاية المتاعب، ربما كان بدايتها الحقيقية.

أوقات قليلة أراها فيها سعيدة، منطلقة، مرحة، تحبني من قلبها.

وأوقات كثيرة أراها صامتة، منطوية على نفسها، تهجرني وإن كانت تعيش معي.

تغضب غضبًا عارمًا من أشياء بسيطة لا تستحق ردة فعلها تلك، وفي الوقت نفسه تتهرب من اتخاذ أهم القرارات التي تخصّنا معًا.

كثيرًا ما كنت أشعر أنها غير مهتمة بحياتنا، وكأن لها حياة أخرى منفصلة عني، كأن علاقتها بكلبها أو بصديقاتها أو وقتها الخاص أمام التلفاز أهمّ مني.

فهي دائمًا صامتة، شاردة، عيناها معلقتان في الهواء، بالإضافة إلى تصرفاتها المجنونة التي لم أفهم دوافعها أبدًا.

تذكّر وائل هذا كله، ثم سأل نفسه:

هل هذه نهاية القصة؟

ظل يفتش في أوراقها بحثًا عن أجزاء أخرى للقصة، حتى وجد ورقة مكتوب عليها: "الضربة القاضية".

"الضربة القاضية"

تُسمّى "الضربة القاضية"، لكن في الزواج لا توجد ضربة قاضية واحدة، بل العديد من الضربات القاتلة، أو ربما نتفادى تلك الضربات مباشرة.

المقصود بالضربات القاتلة هو لحظات المواجهة الحاسمة التي تكشف فيها عن وجهك الحقيقي للآخر وتخبره كيف تراه دون تجميل، والتي تسمع فيها لأول مرة كيف يراك هو.

والنتيجة بالتأكيد مذهلة.

كانت اللحظات الأولى للمواجهة بيني وبين أيمن مثل الهدوء الذي يسبق العاصفة؛ الجو مشحون بالتوتر والأعصاب مشدودة.

_ رايحة فين؟

= هنام.

_ في الأوضة الصغيرة برضو؟ شكلك نسيتي إننا متجوزين.

تجاهلت كلام أيمن واتجهت إلى الغرفة الصغيرة.

أوقفني في الطريق وقال:

_ بتعملي كده ليه؟ كل ده عشان ما وافقتش تسافري؟

= تصبح على خير.

_ لما أكلمك توقفي وتردي عليا!

قالها أيمن وهو يصرخ في وجهي.

= شكلك بقيت تفكر بنصك التحتاني بس!

احمرّت عينا أيمن كثيرًا، ظننت أنه سيضربني، لكنه لم يفعل.

_ متزعليش لو لاقيتي بخونك.

قالها أيمن وفي عينيه غِلّ.

= إنت خلّيتني أخون نفسي قبل ما إنت تخوني.

_ رجعنا لكلام الروايات اللي ملا دماغك؟

= أنا لما ببصّ في المراية مش بعرفني!، ده مش لبسي، ده اللبس اللي إنت شايفه يليق بمراتك، دي مش طريقة كلامي، ودي مش ضحكتي، لأنهم مش بيعجبوك فغيّرتهم.

ما تروحيش، ما تجيش، بلاش تتعاملي مع ده، بلاش تصاحبي دي... لغاية ما خلّيتني مسخ!

_ تعرفي إيه مشكلتك؟ إنك دايمًا بتلوميني إني ما قبلتكيش زي ما إنتِ، في الوقت اللي إنتِ نفسك مش قابلاني زي ما أنا.

طريقتي في الكلام مع الناس ما بتعجبكيش، بتشوفي لبسي مبهدل مش على قد المقام.

إذا كنتِ شايفة إني خلّيتك مسخ، فإنتِ بتتعاملِي معايا على إني قماشة في إيدك، ومن وقت ما اتجوزنا بتحاولي تفصّليها على كيفِك.

أين باقي القصة؟

ماذا حدث بعد ذلك؟

كان وائل يسأل نفسه وهو يقلب الأوراق بين يديه، ولم يجد ورقًا آخر.

لم تكن تلك المشاجرة قد حدثت بينه وبين مروة، بل ربما مروة لا تعرف كيف تتشاجر.

لكنها كتبت تلك المشاجرة كي تصل إلى هدفٍ ما، ربما مخاوفها من الزواج، وذلك يفسّر تصرفاتها الغريبة معه.

لذا قرر وائل أن يحدثها بلغةٍ تفهمها؛ سيكتب رسالة إلى مروة.

لم يكن وائل يعلم كيف يبدأ رسالته أو ماذا يكتب.

بدأ يسترجع كل الأحداث التي جمعته بمروة وكل ما كتبته، ثم كتب:

"مروة،

قرأت قصتك التي تذكرين فيها أن الزواج سُمٌّ قاتل، يميت كل ما فينا قبل أن يميتنا نحن.

هذا حقيقي، إنه بالفعل يميت كل شيء فينا، لكن ليس ليميتنا في النهاية، بل ليخلق كائنًا جديدًا يُدعى نحن.

لم يعد هناك أنا أو أنتِ، بل ظهر كيان جديد هو نحن، مزيج مني ومنك.

وحتى يخلق الزواج ذلك الكيان، لا بد أن يُذيب الأنا الخاصة بي وبكِ.

إذن، فالزواج ليس سُمًّا قاتلًا، بل هو بداية عملية خلق.

نعم، إنها عملية صعبة عسيرة، تشبه عملية ولادة مخلوق جديد للحياة، لكن كل بداية جديدة تأتي بمعاناة.

دائمًا ما كنت أتساءل لماذا كنتِ تهجرينني ونحن معًا؟

لماذا تخلقين لكِ حياة جديدة ليس لي بها مكان؟

لكني الآن يبدو أنني علمت الجواب:

أنك تخشين الحب، تُغلقين على قلبك جميع الأبواب والنوافذ حتى لا يدخله الحب فيتحطم قلبك.

لكن، أتدرين ما وجه النقص في ذلك؟

أنك تحسبين أن قلبك شيء مادي يُكسر ومن ثم لا يُصلح.

إنك تخلطين بين قلبك وبين المزهرية التي في غرفتك؛ إذا كُسرت تحطمت.

لكن قلبك يا حياتي، من لحم ودم، إذا سكنه الحب سيغمره، وإذا هجره سيترك به نوافذ تجعله يستقبل الحياة بشكل أعمق مما كان.

تصوّرين نفسك في القصة أنك أضعف مني، قليلة الخبرة في الحياة، ربما لهذا السبب كنتِ تتهرّبين من اتخاذ القرارات الهامة معي، ومن ثم تثور ثائرتك لشيء بسيط تأكيدًا لذاتك.

لكن كان عليكِ أن تنغمسي في الحياة أكثر وتحاولي اكتساب خبرة منها.

إن خوفك هو ما كان يدفعك إلى ارتكاب كل تلك الحماقات..."

هنا توقّف وائل عن الكتابة وهو يتذكّر زوجته حينما رآها لأول مرة تسكر في المنزل، وكان متفاجئًا، خاصة أنه يعلم أنها لا تشرب الخمور، أو غيرها من تصرفاتها الغريبة، ناهيك عن عصبيتها الدائمة وكلماتها الجارحة.

كان دائمًا يختلق لها الأعذار ويسامحها، لكنه شعر أنه تعب من هذا كله.

كان يرغب في زواج هادئ وحياة هانئة مع من أحبها، لكن الآن يرى كم أتعبه هذا، وفكّر لأول مرة في الطلاق.

فربما يكون الزواج فعلًا "سمًّا قاتلًا" كما كتبت مروة.

الحكاية الثالثة والعشرون

قصة " قصة حياتي"

استيقظت في الصباح ورأسي به صداع من النوم المتقطع الذي عانيت منه أمس نتيجة قلقي من الرد المنتظر من دور النشر على القصة التي أرسلتها منذ أسبوعين.

نهضت من السرير، وتوجهت إلى الحمام متفاديةً النظر إلى المرآة كعادتي. تناولت فطوري بمفردي كعادتي أيضًا منذ وفاة أمي. فتحت دولابي وأنا أفتش عمّا أريد أن أرتديه اليوم في موعدي مع دار النشر، ولاحظت وجود نظارتي السوداء ملقاة. فكرت كثيرًا: هل أرتديها اليوم أم لا؟ وقررت أن أحسم أمري بشأنها عندما أخرج من المنزل.

حتى أضيّع الوقت المتبقي قبل موعدي مع دار النشر، قررت فتح صندوق رسائلي عبر الهاتف، فوجدت رسالة من سلمى، صديقتي الفيسبوكية، التي أرسلتُ لها أمس قصتي لتبدي رأيها فيها. كان نص الرسالة كالآتي:

"القصة حلوة بس كئيبة شوية... وما فهمتش النهاية أوي."

لم أستسغ كلمة "حلوة"، هل هي حقًا حلوة أم أنها تجاملني؟

أما عن النهاية، فهي نوع من الفانتازيا، المقصود به أن البطلة قد تحررت من مخاوفها.

أرسلتُ لها رسالة أقول فيها إن هذه القصة هي أهم قصة في حياتي، لأنها قصة حياتي.

نظرت إلى الساعة... اقترب الموعد، يجب أن أستعد للخروج.

شعرت برغبة في حك ظهري، تلك الرغبة التي تلاحقني منذ أسابيع، تقريبًا منذ بداية كتابتي للقصة، وهي تزداد. لكني لم أعرها اهتمامي، وانصرفت للاستعداد للخروج.

مصر، منتصف السبعينات.

أسرة مصرية بسيطة مسيحية، مكونة من أب وأم وابنتين: الكبرى تسع سنوات، والصغرى أربع سنوات. كانت الأجواء كلها حماسية، الجميع في انتظار عرس الخالة.

وكانت الأكثر حماسة هي الابنة الكبرى، مريم، ذات التسع سنوات. أحبت مريم كثيرًا فستان العرس، وطلبت من أمها فستانًا مثله. لم تكن تتمنى سوى أن تكبر سريعًا وتصبح عروسًا مثل خالتها.

وسط أجواء الفرح التي كانت تملأ المكان، كانت الأم مشغولة بتحضير طعام العرس قبل وصول المدعوين الجميع مشغولون، وكانت مريم تلهو مع أختها الصغرى سارة التي سرقت من أمها طبقًا به طعام وشوكة. تشاجرت مريم مع سارة، ومن دون أن تشعر، سحبت الشوكة وغرزتها في عينها.

جلستُ أمام مدير التحرير، أطال النظر إليّ ثم إلى نظارتي السوداء، وقال:

– القصة كئيبة أوي، بس مش دي المشكلة، المشكلة الحقيقية إن القصة ميتة.

– ميتة إزاي؟

– مفيش أحداث محورية في القصة، باستثناء حدث فقع عين البطلة وهي صغيرة. بعدين تقريبًا مفيش أحداث، كلها مشاعر البطلة بتسردها، وكأنها قاعدة بتفضفض لواحدة صاحبتها، مش بتحكي قصة تنفع تنتشر.

– يعني إيه؟ إيه المطلوب؟

– احكي تفاصيل زيادة... عنك، قصدي عن البطلة. حياتها الجنسية مثلًا بما إنها ما اتجوزتش. حاجات الناس تتحمس تقرأها.

استأذنتُ منه، ونظرتُ في أوراقي، وأعدت قراءة ما كتبت.

الدم... عيني المصابة... بكاء أمي... صراخ أختي الصغرى... غضب أبي العارم من أمي واتهامه لها بالإهمال... خوفي وقلقي في الأيام الأولى بعد الحادثة.

أخبرنا الطبيب بأني فقدت عيني اليمنى للأبد، ولم يكن هناك حل.

كنت أبكي طول الليل، وتذكرت إحدى القصص التي قصتها علينا المعلمة في مدارس الأحد عن مولود أعمى خلق له الرب يسوع عينين.

توقفت عن البكاء، وقمت ووقفت أمام أيقونة المسيح والعذراء، وطلبت من الله أن يصنع لي معجزة. كنت أسمع كلمة "معجزة" وأنا طفلة كثيرًا، لذلك أردت معجزة، وانتظرت معجزة.

وتعلقت بالسيدة العذراء، وطلبت منها عندما أنهض من النوم أن تخلق لي عينًا بدلًا من التي فقدتها.

عشت على هذا الأمل خلال الأيام التالية للحادثة: سيصنع الرب معجزة ويخلق لي عينًا جديدة، وسأروي ذلك لأمي، وأجعلها ترويه لجاراتنا وخالاتي وزوجات عمي.

كنت أنام في الليالي وأستيقظ في اليوم التالي أنظر إلى المرآة ولا أجد العين الجديدة. أرى فقط وجهي البشع، ثم أبكي.

أتذكر المعلمة وهي تحدثنا عن أن الإيمان شرط المعجزات. أذهب للنوم وأنا كلي إيمان أن الرب سيصنع بي معجزة في الغد ويخلق لي عينًا جديدة... ويأتي الغد وراء غد آخر، ولم يصنع الرب معجزة.

بعد مرور سبع سنوات،

أصبحت مراهقة الآن وانتقلت إلى مدرسة جديدة. كانت تلك الفترة الأصعب على الإطلاق. كنت لا أطيق النظر إلى المرآة، وأتفادى التواجد أمامها لأي سبب من الأسباب.

كانت نظرات الفتيات لي في المدرسة الجديدة بين التنمر والسخرية، وبين العطف والشفقة من جهة أخرى. كل ذلك كان يعذبني حتى انطويت على نفسي. لم يعد لي أصدقاء سوى أميرة، ابنة عمتي.

كنت أكره أختي الصغرى، أحملها مسؤولية ما حدث لي. كثيرًا ما كنت أعيد الحادثة في خيالي وأقول: لو يومها لم ألعب مع أختي، لو انتبهت أمي قليلًا، لو لم تتزوج خالتي من الأساس، حتى لو لم تولد أختي الصغرى، لكنت الآن عادية.

أصبحت أنظر إلى نفسي كشبح. كثيرًا ما كنت أحاول أن أتخيل شكلي بعيني اليمنى، فأجد أني جميلة، بل جميلة جدًا، أكثر من كل فتيات صفي، لكن بلا عين... أقرب إلى شبح.

كنت أفكر في ذلك وأبكي.

كرهت أمي، أبي، أختي، زميلاتي في الفصل، الجارات والخالات اللواتي كنّ يأتين لزيارة أمي وهنّ يأسفن على حالتي.

شفقة أمي نحوي، خيبة أمل أبي، ملأني كل ذلك حسرة ومرارة.

كنت أنظر إلى نفسي كبائسة، كإنسانة ابتلاها القدر بالتعاسة مدى الحياة.

لم أتوسم خيرًا في المستقبل، ولو كان قتل النفس حرامًا لقتلت نفسي دون تفكير.

نظرت إلى باقي فتيات صفي وأنا أتساءل: لماذا لست مثلهن؟

ملأني الحقد نحوهن حتى قررت أن أنتقم منهن. إذا كنت لست سعيدة، فلماذا أتركهن سعداء؟

قمت بمضايقتهن بكافة الطرق وابتكرت الحيل وأنا أدبر لهن المقالب.

فما كان منهن إلا أن ردّدن الجميل ودبرن لي المقالب، ومنحنني لقب "عورة" عند مناداتي.

حتى أتى يوم شبهتني فيه إحداهن بالقراصنة وأهدتني قطعة قماش دائرية أضعها على عيني، فقمت بضربها، فاشتكتني إلى المديرة.

لم أعد أتحمل المدرسة يومها. ظللت أترجى أبي أن يخرجني منها، وأني أفضل أن أساعد أمي في أعمال المنزل. وكان أبي لا يفضل تعليم الإناث، فوافق في الحال.

الآن أنا أندم على ذلك أشد الندم، لكن الزمن لا يعود.

مضت الأعوام سريعًا. أنا الآن فتاة في الخامسة والعشرين من عمري، لم تتم خطبتي ولم أتزوج.

الآن فهمت لماذا كنت أرى الشفقة في عيني أمي. أدركت أني لن أتزوج، وبالتالي لن أصبح أمًا ما حييت.

في ذلك الوقت، كان العرسان يأتون للتقدم لخطبة أختي. كنت أشعر بمرارة في حلقي كلما أتى عريس لأختي، ورغبت في طرده سريعًا، فأُسهب في سرد عيوبه، لكن أبي وأمي لم يأخذا برأيي، بل كانا ينظران لي بشفقة كنت أمقتها.

فأنعزل عنهما وأبكي في غرفتي كثيرًا. فالبكاء ليلًا أصبح عادة عندي منذ كنت طفلة.

كنت أكره كل ما يخص الأعراس، لا أطيق رؤية فساتين الزفاف، وأتضايق كلما سمعت عن خطبة إحدى الفتيات، ثم أبكي ليلًا وأنا أفكر في مستقبلي.

أثناء قراءتي للقصة وأنا أحبس دموعي، وجدت هاتفي يهتز. كانت سلمى تتصل بي.

سلمى فتاة تصغرني في العمر كثيرًا، لكننا أصبحنا صديقتين. تعرفت عليها عبر الإنترنت، الذي منذ وفاة والديّ وهو يؤنس وحدتي.

أحيانًا أشعر أنني لو أنجبت، لكانت ابنتي بعمر سلمى الآن.

لم نتقابل أنا وسلمى من قبل، كانت أحاديثنا عبر تطبيق الماسنجر، لكنها ألحّت أن تأخذ رقم هاتفي وطلبت أن نتقابل.

حددت معها اليوم موعدًا.

اتصلت سلمى لتذكرني بالموعد.

ـ لسه فاضل على ميعادنا ساعة يا سلمى.

ـ أنا بفكرك بس. بصي، أنا بعتلك صوري عشان تعرفيني لما تيجي النهارده... وكمان في مفاجأة.

ـ مفاجأة إيه؟

ـ لما تيجي هتعرفي. يلا سلام، عندي كورس.

أغلقت الخط مع سلمى وأكملت قراءة القصة وأنا أحاول وضع بعض التعديلات.

أخبرت أب اعترافي بما أشعر، برغبتي في أن أصبح أمًا، والتي لن تتحقق مطلقًا.

لكنه سألني: لماذا أنتِ متأكدة أنها لن تتحقق على الإطلاق؟

صمتُّ دقيقة، لم أكن أعلم بماذا أجيبه.

ثم نظر إلى عيني وقال بصوت حنون:

"ربما الله له حكمة من تلك الحادثة التي حدثت لك وأنت طفلة. ربما يريد أن تصبحي أمًّا بطريقة أخرى. لماذا لا تأتي الخدمة معنا؟ ربما يومًا تصبحي مثل الأم تريزا."

فكرت كثيرًا في كلام أبي الروحي. نعم، إنه ذلك. كثيرًا ما سألت نفسي: لماذا حدث معي ذلك؟ والآن عرفت الإجابة.

الله يريدني أن أصبح قديسة، لذلك أبعدني عن العالم بتلك الطريقة، حتى لا يصبح في حياتي غيره هو.

نعم، أنا الآن قديسة. لست حزينة عما حدث لي. أحب كل الناس، أحب أختي وأتمنى أن تكون سعيدة في حياتها وتتزوج وتُرزق أولادًا، فأنا سيكون لي أولاد كُثُر... الكنيسة.

أصبحت الكنيسة والخدمة كل حياتي، وكان أبي وأمي فخورين بي.

اعتقدا أنني نسيت مشكلتي، كما اعتقدت أنا كذلك، فأنا الآن قديسة.

أقضي يومي في النهار في الخدمة، والليل في قراءة سير القديسين. أناجي القديسين وأحدثهم، وأشعر أنهم معي في كل خطوة.

حتى أتى يوم وأخبرني أبي أن أختي سيتم خطبتها لشاب يعرفه، وأنه وجد العريس بلا عيب فوافق، والزواج سيتم سريعًا.

رغم تماسكي أمام أبي، إلا أنني شعرت بطعنة في صدري.

كان الكثير من العرسان يتقدمون لخطبة أختي، لكن تلك المرة الأولى التي يوافق فيها أبي.

انسحبت إلى غرفتي سرًا، ثم بكيت... بكيت كثيرًا كما لم أبكِ من قبل.

كان زواج سارة يذكّرني بأني لن أتزوج ما حييت، فمَن يمكن أن يرضى بمن هي مثلي؟

كنت أظن أني تجاوزت كل ذلك وأصبحت قديسة، لكني لست قديسة.

أنا أرغب بالزواج، ولست راضية بقدري، وأحقد على أختي الصغرى، فالقديسات لا يحقدن، ولا يبكين كمَدًا حين تتزوج الأخريات.

كعادتي، بكيت كثيرًا يومها وحتى العرس.

توقفت عند ذلك الجزء وتذكرت كلام رئيس التحرير، فأضفت بعض التعديلات.

تزوجت أختي.

الزواج كان يعني لي أسرة ومنزلًا وأطفالًا ورجلًا.

أنا لم أعرف في حياتي معنى تلك الكلمة.

طبيعة منزلنا المحافظ بشدة منعتني من الاختلاط بأحد. كانت الطريقة الوحيدة للتعرف على رجل هي الزواج عن طريق الأهل، ولم يكن أحد ليرضى بعوراء مثلي.

الجميع كان يرغب بأختي.

هنا توقفت عن الكتابة، وفكرت: يجب أن أكتب بشفافية أكثر.

لم يكن أمامي سوى نجوم التلفزيون، كنت أتخيل نفسي في قصة حب مع هذا الممثل أو ذاك، أتخيل نفسي وأنا سليمة، لا عوراء، لا يرغب بها أحد. حينما كبرت قليلًا بدأت أغرق في أحلام اليقظة حتى أشعر أن هناك من يلمسني حقًا، من يحتضنني ويرضى بي كما أنا. أعتقد أني مارست العادة السرية، وأتذكر أن أول من تخيلته كان زوج أختي، فطالما تخيلت نفسي مكانها، طالما كنت أسترق النظر إليه وهو يداعبها، وأتخيل أنه يداعبني أنا، يحتضنني أنا، يقبلني أنا. فكنت أهتم بنفسي كثيرًا حين يأتي، كنت أظن أنه حتمًا سيحبني إن لم أكن عوراء.

كتبت ذلك الجزء وأنا أشعر بالخجل من نفسي ومن تلك الذكريات، ثم تابعت قراءة باقي القصة.

كانت الأيام تمضي، لكن حياتي متوقفة. كنت أرى الجميع يتقدم في حياته ما عداي، أختي تزوجت وأنجبت، وكذلك ابنة عمتي وأقرب صديقة لي. لم تكن لي حياة، كنت فقط أخدم والدي ووالدتي. ولأني لم أكمل تعليمي، لم أستطع الحصول على عمل، وكان بالكاد معاش أبي يكفينا. كنت أصعد فوق سطح منزلنا، أرى الحمام وهو يحلق في السماء، أحسده لأنه يستطيع الطيران وأنا محبوسة هنا، في منزلي، في جسدي هذا.

كانت رغبتي في الأمومة تزداد يومًا بعد يوم. عندما كانت تأتي ابنة أختي، كنت أصنع الحلويات وأقدمها لها حتى أجتذبها إليّ. كنت أحيانًا أسألها: هل تحبيني أنا أكثر أم ماما؟ فكانت تجيب: ماما.

هل تحبين أن تظلي معي لأصنع لك الحلويات أم مع أمك؟ فكانت ترد: ماما.

كانت إجابة متوقعة من طفلة، لكنها كانت تقتلني. ماذا بي؟ هل نسيت أن للطفلة أمًا بالفعل؟ ماذا أفعل؟ هل أحتضن طفلًا وأربيه حتى يصير ابني؟ لكن حتى ذلك لا أقدر عليه، فأنا لا أستطيع الإنفاق عليه.

تركت القصة جانبًا وذهبت إلى لقاء سلمى. كنت أخشى كثيرًا رؤيتها. دخلت المكان المتفق عليه، وجدتها تجلس أمامي، عرفتها على الفور. كانت صبية يافعة، وأمامها كعكة. أشارت لي أن آتي.

نظرت سلمى إلى لبنى، وجدتها امرأة خمسينية، لكن ملامحها جميلة إلى حد ما، ثم رأت النظارة السوداء. انتظرت أن تضعها جانبًا لكنها لم تفعل.

_ أنتِ طلعتي صغيرة أوي يا سلمى.

_ وإنتِ طلعتي كبيرة أوي. (تضحك بعفوية)

_ إيه التورتة دي؟

_ دي المفاجأة، عرفت من الفيسبوك إن النهارده عيد ميلادك.

_ إنتِ عارفة إن عمر ما حد احتفل بيا؟

_ يا ستي أنا بحتفل بيكي، مش كفاية؟ (تضحك ثانية)

_ المشكلة إني مش هقدر آكل حاجة من التورتة، أو ممكن آكل حاجة صغيرة أوي.

قالت سلمى بتعجب:

_ ليه يعني؟

أجابت لبنى بألم:

_ عشان السكر.

لم يكن هناك أمر يهون عليّ سوى فكرة الموت. كنت أسمع دائمًا في العظات أن الحياة فترة انتقالية حتى نصل إلى السماء، وكانت تلك الفكرة تعزيني؛ أن هذه الحياة التي يبدو أنها ستفوتني بلا شك ستنتهي، وينتهي كل ذلك العذاب، وأذهب إلى السماء.

كنت أعتقد أن السماء حق مكتسب لمن هم مثلي، أنها تعويض عن حياتي البائسة على الأرض، وكأن الله مدين لي. ثم سألت نفسي: لماذا أستحق السماء؟ ماذا فعلت لأستحقها حقًا؟

مررت بحادثة في طفولتي أوقفت حياتي حتى كبرت، فهل سأدخل السماء لأنني فقدت عيني؟ هل هذا صك الأمان لي؟ هل يجب على الله أن يدفع السماء ثمنًا لتعويضي عن حياتي في الأرض؟

لا أعتقد أن الأمور تجري على هذا النحو. لا أعتقد أنه يجب أن يُكافئني على عاهتي.

من هذه اللحظة شعرت أنه يجب أن أفعل شيئًا.

أيام عمري تمضي دون أن أفعل شيئًا، دون أن أستمتع حقًا بحياتي.

أود أن أستمتع بالحياة قبل أن أموت.

بدأت أشتري أدوات التجميل، أتزين حتى وإن كان لنفسي. كنت أرغب في رؤية الحياة قبل أن أغادرها.

ذهبت لأول مرة في حياتي إلى أحد الكافيهات العامة، جلست أشاهد العالم من حولي، لكني وجدت العالم يرميني بنظرات الاستغراب. من يومها قررت ارتداء نظارة سوداء.

وفي أحد الأيام قررت الذهاب إلى السينما لأشاهد فيلمًا أحب بطلته، هكذا وحدي. ذهبت واستمتعت كثيرًا، يبدو أنني نسيت أنه لا يحق لي الاستمتاع.

عندما رجعت، وجدت أبي في انتظاري وكأنني "عملت عملة" بذهابي إلى السينما. كانت المرة الأولى التي يضربني فيها، ثم أسمعني كلمات قاسية جدًا.

_ أنا لسه ما موتتش عشان تصيعي براحتك، إنتِ فاكرة كده هيجيلِك عرسان؟

_ أنا مش بعمل كده عشان حد، أنا بعمل كده عشان نفسي.

_ إنتِ إيه اللي حصلك لما كبرتي؟ ما انتي كنتي بتروحي الكنيسة وتخدمي، ولا يوم في كنيسة ولا يوم في سيما! أنا بنتي تروح سيما!

انتهت تلك المشاجرة بمنعي من الخروج، وبنظرات توبيخية من أمي، حتى أدركت أن حتى الخروج والاستمتاع بالحياة ليس من حقي طالما لم أتزوج بعد، وأنني محبوسة في منزلي.

كنت أرغب في بعض السعادة، فلم يكن أمامي سوى الطعام الشهي اللذيذ وصنع الحلويات التي كنت ماهرة فيها وتناولها.

_ بعد كده جالك السكر؟

_ طبعًا، وقتها حسيت إن حتى المتعة الوحيدة المتاحة ليا اتحرمت مني.

_ وبعدين عملتِ إيه؟

_ ولا حاجة، بعد فترة مات أبويا وأمي تعبت، وبعدها ماتت. وأنا عايشة لوحدي دلوقت. مكانش في حاجة بتسليني غير قراية الروايات والنت.

_ عشان كده قررتي تكتبي قصتك. إنتِ مريم البطلة، مش كده؟ عرفتك من النضارة السودة.

_ أيوه أنا، كان نفسي أحكي لكل الناس قصتي. كان نفسي أحس إن في حد حاسس بيا وبمعاناتي، حتى لو كانوا ناس ما عرفهمش. أشوف في عينهم نظرة تحسسني إني بطلة لأني اتحملت كل ده.

ابتسمت سلمى برقة، ثم أكملت لبنى:

_ لكن القصة اترفضت، عشان كئيبة أوي. تخيلي! محدش هيحب يقرأ الغم ده.

_ سيبك من الناس، إنتِ حابة تعملي إيه؟ نفسك في إيه؟

_ نفسي في إيه بجد؟ نفسي ألبس فستان فرح. كنت دايمًا وأنا عيلة بزن على أمي تشتريه ليا، وكانت بتقولي لما تكبري. بس لما كبرت...

قاطعتها سلمى قائلة:

_ إيه رأيك تشتري فستان فرح وتلبسيه؟

_ بتقولي إيه؟ عشان الناس تقول إني اتجننت؟

_ مش اتفقنا مالناش دعوة بالناس؟

اقتَنعت لبنى بكلام سلمى، واشترت بالفعل فستان زفاف وارتدته لنفسها، وقررت أن تفعل كل ما تحب في آخر أيامها في الحياة.

أن تستمتع بالنظر إلى السماء، ودفء الشمس، وجمال الطبيعة، ومذاق الطعام.

ثم صعدت إلى سطح منزلها، ورأت الحمام وهو يحلق في الفضاء الواسع.

تذكرت تلك الحكة في ظهرها وبدأت بلمسه، فشعرت بشيء غريب في ظهرها، لم تكن تعرف ماذا تلمس.

يبدو أنه ريش! حاولت التأكد ثانية، نعم، إنه ريش!

ثم نظرت إلى نفسها، فوجدت أنه نما لها ريش تستطيع أن تحلق به في الفضاء مثل الحمام.

تلك الأمنية التي طالما رغبت بها، فقد تحققت.

والآن تستطيع الطيران.

الحكاية الرابعة والعشرون

قصة "وعد"

مارلين

جلست أمام طبيبي وأنا أتصنّع الهدوء، ما عدا أطراف أصابعي التي لم أستطع منعها من الارتعاش. وضعت راحة يدي الأخرى عليها في محاولة لطمأنتها، فلم يحضر أحد معي ليقوم بهذا الدور. استمعت إلى طبيبي بقلق، بدا كلامه لي كأنه طلاسم، لم أستوضح منه سوى كلمة «خبيث». سألني عن وجود مرافق معي وتحديد موعد للعملية، لكني لم أُجِبه بلساني، بل انهمرت دموعي على وجنتيَّ.

حاول الطبيب طمأنتي عندما رأى حالة الرعب التي تملكتني، لكني قمت من كُرسيَّ وصِحت فيه قائلة:

- **في نسبة كبيرة أموت؟! أنا ماينفعش أموت!! أنا عندي بنت صغيرة مالهاش غيري، أنا ماينفعش أموت دلوقت، أنا مش عايزة أموت دلوقت!**

استمر الطبيب في محاولة طمأنت التي لم تُجدِ أيضًا. خرجت من العيادة وأنا أفكر في ابنتي الوحيدة.

سارة

"لو كنت أعرف بأن الوعد متداري، ما كنت أطلع ولا أخرج أصلي من داري، ياريت ما حبيت ولا كان العذاب حالي."

استمعت إلى صوته الجميل وهو يغني لي هذا الموال، وظللت أعيد رسالته الصوتية مرات عديدة. لم أستطع الرد عليها، لكني استمعت لها مرارًا وتكرارًا، وحفظتها في خانة المفضّلات. كنت أود أن أسمع صوت إيهاب كثيرًا وأحفظه في قلبي، ربما لن أسمعه ثانية.

نظرت إلى تاريخ الرسالة فوجدتها منذ يومين، حين التقينا صدفة في عزاء والد فاطمة زميلتنا. كانت عيناه تلاحقاني في الدقائق المعدودة التي التقينا فيها. وجدتُه حينها يعرض عليّ أن يُوصلني إلى المنزل، رفضت في البداية، لكني لم أستطع أن أقاوم، فقبلت أخيرًا.

كانت أجواء الليل والهدوء يرافقاننا، فقطعت هذه الأجواء قائلة:

- **صعبانة عليّ فاطمة، شكلها كانت تعبانة أوي من الصدمة.**
- **ربنا يكون معاها بقى... بس رامي مش هيسيبها.**
- **اشمعنا رامي؟**
- **كلنا عارفين إن رامي بيحبها من سنين. ما شُفتوش في العزاء، لما قالها: أنا أخوكي، وإذا عُزتي حاجة أنا موجود. كلنا عارفين إنها حجج عشان يبقى معاها.**
- **يبقى مغفّل... علاقته بيها مش هتوصله لحاجة.**

قلت هذه الجملة ثم تذكرت نفسي، لا يوجد فارق كبير بيني وبين رامي.

نظر إليّ إيهاب، فهربت بعينيّ منه وسمعته يقول:

- **"وحشتيني على فكرة."**

لم أستطع منع قلبي من الفرح، لكني لم أُجبه.

رنّ هاتفه فجأة، نظر إليه إيهاب وتغيّر وجهه، ثم أغلق الهاتف، فتوقعت أنها زوجته. ربما أتت في وقتها لتجعلني أفيق من أوهامي.

- **كفاية يا إيهاب، مش بس رامي وفاطمة هما اللي علاقتهم مش هتوصل لحاجة.**
- **في حاجات كتير اتغيّرت من وقت ما بعدتي عني. أنا سيبت البيت، وما ظنش هرجع تاني، وهحاول أمشي في إجراءات الطلاق.**

- **تبقى بتضحك على نفسك. مفيش سبب يخلي الكنيسة تطلّقك من مراتك، ولا هتديك تصريح بالزواج التاني.**

-هي التعاسة مش سبب؟! لما اتنين ينعدم بينهم الحب والاحترام، ويبقى اللي بينهم بهدلة لبعض، المفروض يكملوا؟ ثم نظر في عيني وقال: لما يبقى كياني كله مع إنسانة تانية واتحرمت منها عشان قرار غلط أخدته زمان. أيوه، جوازي كان غلطة غلطتها، وأكيد مش عدل أدفع عمري كله تمن ليها.

ثم غيّر نبرة صوته وأصبحت حنونة أكثر، واقترب مني وقال برقةٍ أخذتني:

- **سارة، أنا لو قابلتك من كام سنة قبل ما أتجوز، كانت كل حاجة اتغيّرت.**
- **الكلام ده مش هيغيّر حاجة من الواقع... سلام.**

إيهاب

لم أكن أتوقع أن يُكتب اسمي بين بؤساء العالم المعذّبين من الحب. لم ترد سارة على رسالتي، ولم أكن أتوقع ردها. إذًا، ماذا كنت أنتظر؟ لا شيء سوى بضع لحظات من السعادة نُلتها عند تسجيل الرسالة وإرسالها.

هكذا كانت دومًا علاقتي بسارة، تلك الفاتنة التي غيّرت حياتي. حياتي التي كانت عبارة عن حرب باردة بيني وبين زوجتي.

تزوجت مارلين منذ بضعة أعوام، كنت وقتها أشعر أنه حان الوقت للزواج. اختارت لي أمي مارلين، فتاة يتيمة ومهذّبة، تداوم على حضور القداسات. رأيتها فلم أنجذب لها ولم أنفر منها، لكني تزوجتها بعد فترة وجيزة، حيث كانت والدتها مريضة تخشى أن تموت قبل أن تُزوّج ابنتها. وتوفيت بالفعل بعد عرسنا بستة أشهر. كانت مارلين حينها حاملًا.

حاولت أن أحبها بعد الزواج، لكني لم أعرف. ربما شعرت هي بذلك، لذا كانت دائمًا عنيدة معتدّة بنفسها، وكنت أكره كبرياءها وسيطرتها. لم يمرّ الكثير على زواجنا حتى نشبت الخلافات بيننا. لم أكن أعرف أن تلك المشاحنات اليومية على تفاصيل الحياة يمكنها أن تمرّر الحياة بأكملها.

زاد اهتمامي بعملي هربًا منها، حتى قابلت سارة.

فتاة رقيقة جدًا، صوتها خفيض، ابتسامتها دافئة، أرقّ من ورقة زهرة. تمنّيت أن تكون زوجتي مثلها. في هذا الوقت بدأت تسوء علاقتي بزوجتي أكثر.

تطوّر الأمر كثيرًا، فلم أعد أطيق أن أقترب منها. أكره رائحتها، ملمسها. كنت كي أجبر نفسي على الاقتراب منها أتخيّل أنها سارة. آه، سارة... هي التي عرفت معها معنى الحب، عشت معها مشاعر لم أحياها من قبل.

لو سُئلت عن النعيم لقلت: هو وجود سارة.

كنت أعلم أن علاقتي بها لن تتطور. بالطبع فكرت في قطعها، لكني لم أستطع. كنت كالمدمن، لا أرغب سوى في بضع لحظات من السعادة. أعلم أن علاقتي بها خاطئة، لكن ماذا أفعل إذا كان جسدي يفرز هرمونات السعادة كلما رأيتها؟

كانت سارة تقول دائمًا: "نحن فقط أصدقاء، لسنا أكثر من ذلك."

فهي تسمع شكواي من زوجتي وتفهمني فقط لواجب الصداقة. لكني كنت أعلم، أنا وهي، سرًّا، أن هذا ليس حقيقيًّا.

لم أستطع منع نفسي من الاقتراب منها أكثر، ولم أكن أشعر بنفسي وأنا أخبرها أني أحبها... أحبها حقًّا. حتى فكرت أن أطلّق زوجتي في المحكمة وأتزوجها زواجًا مدنيًّا، لكنها رفضت، فأهلها لن يقبلوا الفكرة.

إلى أن أتى يوم قرأت زوجتي الدردشة الخاصة بي مع سارة على الواتساب، وكانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير. تركت المنزل بعدها، وتسرّب خبر تركي للمنزل إلى المستشفى. زادت الشبهات والأقاويل عن علاقتي بسارة، لذا فضّلت سارة الابتعاد عني.

ولم أرها سوى من يومين، في عزاء والد فاطمة.

رنّ هاتفي، فانتفض قلبي... ربما حنّ قلب سارة. لكني وجدت المتصل: مارلين.

مارلين

مرت الأيام القليلة بعد زيارة طبيبي عصيبة. كنت تائهة، هناك مائة سؤال يدور في عقلي. خائفة؟ لا، بل مرتعبة. أنظر إلى ابنتي كثيرًا، فربما لا أراها ثانية. لم يكن أمامي سوى الاتصال بإيهاب بعدما كنت قد عوّدت نفسي أن أعيش أنا وابنتي بمفردنا دون الحاجة إليه.

في البداية لم يُجب على اتصالاتي. لم أكن أعلم هل يستطيع مساعدتي؟

هل الشخص الذي فضّل تركي أنا وابنته من أجل امرأة أخرى يمكنني الاعتماد عليه؟

لكن لم يكن أمامي حلٌّ آخر.

أخيرًا أجابني. طلبت أن أراه، لم يكن يرغب في ذلك، لكن أمام إلحاحي رضخ لي.

حضر إلى المنزل وقد اشترط ألّا تزيد المقابلة عن نصف ساعة. جاء الموعد، استقبلته بهدوء، كنت كأني أتعرف عليه من جديد. تُرى، ماذا سيكون جوابه إذا علم بمرضي؟ هل سيتأثر من أجلي؟ هل ما زلت أعني له شيئًا؟

كان حديثه لي جافًا تمامًا، لذلك بادلته الجفاء نفسه:

- **نعم، قولتي إنك محتاجاني في حاجة. تالا كويسة؟**
- **كويسة.**
- **أومال؟**

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أخبره بمرضي.

لكن ألم يلحظ منذ دخوله شحوب وجهي عن المعتاد؟ ألم يلحظ أي تغيير في هيئتي يسألني عنه؟

قررت أن أتماسك، ودون أن أنظر إلى عينيه تحدثت بنبرة صوت فاترة تخلو من المشاعر كي لا يظن أني أستعطفه:

- **أنا من فترة كده وأنا حاسة إن فيَّ حاجة.**

قاطعني قائلًا بحدة:

- **أنا مايهمنيش أعرف حاجة عنك، أنا هنا عشان بنتي.**

صمت بعد جملته الأخيرة، فقلت كمن يُلقي موجز أخبارٍ في عجالة:

- **أنا عندي ورم خبيث، وهحتاج أعمل عملية في أقرب وقت، وعايزاك يوم العملية تاخد بالك من تالا، أحسن من أسيبها عند الجيران.**

لم يُعقّب على ما قلت. نظرت إلى عينيه، رأيت فيهما الصدمة من كلامي حتى إنه لم يستطع أن ينطق بكلمة.

فأكملت حديثي، لكن بصوت أهدأ ونبرة عاطفية أكثر:

- **أنت عارف إني ماليش حد.**

ثم تنهدت تنهيدة عميقة وقلت بصوت أقرب إلى الهمس:

في احتمال إني أموت في العملية دي.

ولم أستطع منع دموعي وأنا أكمل حديثي:

- **عايزاك تخلي بالك من تالا.**

حلّ الصمت بيننا برهة. رأيت وجه إيهاب قد احمرّ، ثم نظر إلى عينيّ لأول مرة منذ فترة وقال بصوت حنون افتقدته كثيرًا:

- **أكيد هكون معاكي من هنا ليوم العملية. امتى ده حصلك؟ وإزاي؟**

بدأت أُسرد تفاصيل مرضي وأنا أنظر إليه، وتذكرت تالا... ماذا سيحدث لها لو تركتها لإيهاب؟

****

سارة

تأملتها جيدًا وهي تدخل من الباب، وأخبرني شيء في داخلي أنها ليست مريضة عادية.

نظرت إلى وجه تلك المرأة التي بدا عليه الإعياء الشديد.

_بتشتكي من إيه؟

_إنتِ بقى سارة؟

شعرت بشيء في داخلي، من تكون تلك المرأة؟ أهي غريمتي الخفية التي لم أرَها قط؟

بدأت أرتبك وقلت:

_نعم، حضرتك مين؟

فتحت حقيبتها وظلت تبحث فيها، ثم أخرجت هاتفها. لم أفهم ما بها.

أعطتني الهاتف، نظرتُ فإذا به صورة طفلة صغيرة، ثم سألتني:

_حلوة مش كده؟ ضحكتها جميلة، بصي كده.

_أنا مش فاهمة إيه مشكلتك يا مدام؟

_أنا مارلين، يمكن ما تعرفيش اسمي، أنا مرات إيهاب... إيهاب فكري. أنا عارفة إنك تعرفيه، تعرفيه كويس.

انتفض قلبي، لم أعتد على مثل هذه المواقف، ولم أحب المواجهات يومًا. وجدتني صامتة لا أدري ماذا أقول.

ثم أخرجت من حقيبتها ملفًا وأعطتني إياه.

_الملف ده فيه حالتي، والأشعات اللي عملتها... تقدري تتأكدي بنفسك.

_أتأكد من إيه؟

_من إن في احتمال كبير أموت.

بدأت تبكي وتنهار، ثم أخرجت صورة ابنتها ثانيةً واسترسلت:

_لو مُت، بنتي مش هيبقى ليها حد. لو إيهاب حب يتجوز، فإنتِ أول واحدة هيفكر يتجوزها. أنا جايلِك عشان أقولك تاخدي بالك من بنتي...

لم تكمل حديثها وظلت تبكي بألم. حاولت طمأنتها قدر ما استطعت.

_اطمني، إن شاء الله محدش هيربي بنتك غيرك.

ظلت تبكي، لم أكن أعلم كيف أواسي شخصًا ينهار في مواجهة الموت.

كنت في مثل هذه المواقف دائمًا أترك زميلًا آخر يتعامل، لم أكن أعرف أن القدر سيجمعني بزوجة إيهاب التي طالما كرهتها.

شفقةً وعطفًا وجدتني أمام ذلك أوافق على ما طلبته مني.

مارلين

طلبتُ منها أن تحضر معي يوم العملية، ووافقت على طلبي.

رغبت أن أوصيها على ابنتي في حال صار لي شيء، ستكون هي المسؤولة عنها عندما يتزوجها إيهاب.

إيهاب الذي كان معي يساندني حتى لحظة دخولي العمليات. كنت أعلم أنه يفعل ذلك فقط من باب الواجب، إنه لا يحبني، بل يكرهني.

أنا لست سوى عبء ثقيل في حياته. تلك هي الحقيقة، لكنها لا تهمني.

كل ما يهمني الآن هو ابنتي فقط، أما إن تزوج إيهاب سارة، فهذا شأنه.

إيهاب

شعرت أنه من الواجب أن أرجع إلى البيت وأكون مع زوجتي في تلك اللحظات.

كنت أعلم أنه ليس لها أحد غيري، وفعلت ذلك بدافع الواجب والشفقة.

اطلعت على التحاليل ونتائج الأشعات، كانت حالتها خطيرة جدًا.

نظرت إليها، وجدتها مكسورة، شاحبة، ليست تلك التي كانت تصارعني دائمًا.

تخفي في عينيها دمعة دائمة.

كنت أرغب فقط في مساندتها، ثم أعود حيث أتيت.

شعرت بالغربة في بيتي، لكنها في النهاية أم ابنتي.

جاء يوم العملية، كنت معها في المستشفى، لكني تفاجأت حين رأيت سارة هناك تنتظرنا.

لم أعرف ماذا أتى بها إلى غرفة زوجتي.

ظلت صامتة كعادتها، كنت أعرف سارة جيدًا، فتاة خجولة، رقيقة، لا تجيد التصرف في مثل هذه المواقف،

لذا كانت نظراتها تساند زوجتي، لكنها لم تنطق بكلمة واحدة.

ولم أستطع التحدث معها في وجود مارلين.

جاء وقت دخول زوجتي إلى غرفة العمليات، اقتربت منها لأساعدها في النهوض كي تذهب مع الممرضات، فنظرت إلى عيني وقالت بثبات:

_لو مُت، مشكلتك هتتحل.

صعقتني جملتها، لم أستطع الرد.

ذكّرتني بمارلين القديمة.

كنت أفهم ما تقصده: إن ماتت فسأستطيع الزواج بسارة.

فكرت في مدى صحة كلامها...

هل موتها فعلًا حلٌّ لمشكلتي؟

نظرت إلى سارة ونحن ننتظر خروجها من غرفة العمليات.

سارة

كنت مع مارلين في المستشفى، ظلت تحدثني عن ابنتها.

كانت تتحدث بيقين أنني سأكون من يرعاها.

كنت أحاول طمأنتها بأنها هي من سترعى ابنتها، لا أنا ولا غيري.

جاءت الممرضة لأخذها إلى غرفة العمليات.

اقترب منها إيهاب لمساعدتها على القيام، نظرت إلى عينيه وهي تلف ذراعها حول رقبته وقالت:

_لو مُت، مشكلتك هتتحل.

شعرت بالإحراج الشديد حين قالت ذلك.

إننا أنا وإيهاب نحاول مساعدتها كي تشفى، ولكن إن شُفيت حقًا، لن تُحل مشكلتي أنا وإيهاب.

كانت تلك الجملة بداية حاجز بيني وبينه.

شعرت به ونحن ننتظر خروجها من غرفة العمليات.

لم نتحدث سوى ببعض الكلمات الرسمية حتى انتهت العملية.

بعد مرور عدة أشهر

إيهاب

توفيت زوجتي.

لم أكن أعلم أن وفاتها ستكون ثقيلة عليّ إلى هذا الحد.

هل أدركت أنني كنت أحبها بعد وفاتها؟ لا أعتقد، فالحب لا ينشأ فجأة.

هل هو الشعور بالذنب؟

هل ربطت بين مرضها المفاجئ وجرحي لها حين علمت بعلاقتي بسارة؟

سارة التي كنت لا أكف عن التفكير بها، لم أعد أتذكرها الآن إلا نادرًا.

سارة التي كان قلبي يدق كلما رأيتها، أصبح الآن لا يتحرك له ساكن.

ماذا دهاه؟

لا أعرف أين ستذهب علاقتي بسارة، كل ما يشغل بالي الآن هو ابنتي.

كيف أعوضها عن غياب أمها؟

كيف أعتني بها مثلما كانت تفعل مارلين؟

الآن فقط أتذكر مارلين...

أتذكر تفاصيل جميلة كانت تجمعنا، لم أكن ألاحظها من قبل.

سارة

كنت أنتظر أن أقابل إيهاب في الموعد المنتظر.

رأيت وقتها رامي وهو يتحدث إلى فاطمة، كانا بعيدين، لم أسمع ماذا يقولان.

لكن كان واضحًا أن رامي بكل جسده يتجه نحو فاطمة، أما هي فتعطيه ظهرها.

كنت أعلم أن فاطمة تحاول أن تفعل ما كنت أفعله مع إيهاب.

أنا لا أستطيع الزواج من رجل متزوج، وهي لا تستطيع الزواج من رجل يخالفها في العقيدة.

كالعادة، إيهاب في الفترة الأخيرة بعد وفاة زوجته يتأخر عن مواعيدنا،

وإن حضر، فهو ليس إيهاب الذي أعرفه.

نظراته أصبحت فاترة، كلماته باردة،

وإن تحدث، فهو يتحدث فقط عن ابنته وعن المسؤولية الثقيلة التي اكتشف أن زوجته كانت تتحملها بدلاً منه.

لكنه لا يذكر أي شيء عن علاقتنا.

إنه الآن رجل أرمل يستطيع أن يتزوج، لكنه لم يعد يفكر في الزواج كما كان من قبل.

تذكرت كلمة قالها إيهاب مرة عن زوجته:

_ما كانش ينفع أتجوز واحدة بحبها، الحب عايز واحدة زي القمر.

_قصدك حلوة يعني؟

_لا... امرأة كالقمر. دي اسم قصة. أقصد زي القمر: بعيدة، تبصلها وإنت على الأرض وما تطولهاش، ولا تشوف عتمتها.

أدركت أنني الآن لم أعد امرأة كالقمر.

تأخر إيهاب كثيرًا... فذهبت ولم أعد.

الحكاية الخامسة والعشرون:
قصة " الوجه الآخر"

أمام مرآتها تتأمل وجهها المغطى بقليل من مساحيق التجميل وتسريحة شعرها البسيطة. يهاجمها الماضي بضراوة، لا تستطيع كبح جماح الذكريات التي تطاردها. هي لا تريد أن تُوضع في هذا الموقف ثانية، ولا قلبها يحتمل صدمة ثالثة، يكفيه ما مرّ به. كانت تلوم والدها على إرغامه إياها أن تمرّ بتلك التجربة ثانية، بل ثالثة. أخبرته أنها أصبحت لا تُفكّر في الزواج الآن، وفي الحقيقة هي لم تعد ترغب بالزواج مطلقًا، فهي لا تستطيع أن تحمل ذنب شخص بريء آخر، لكنها لم تستطع أن تُخبر والديها بهذا.

فتحت إسراء، أختها الصغرى، الباب كي تستعجل أمل أن تأتي وتجلس مع ضيوفها. رأت إسراء نظرة الارتباك المرسومة على وجه أمل، فحاولت طمأنتها وأخبرتها أنها تبدو كالقمر، مشجعةً إياها على الخروج لمقابلة العريس وأهله.

كان لقاؤها مع العريس وأهله لطيفًا. بدت أم العريس امرأة طيبة وحنون، وأبوه رجل فاضل. أما العريس نفسه فلاقى استحسان أمل، فهو شاب وسيم مهذب، لسانه عذب، يبدو شخصًا طيبًا وظروفه مناسبة لها. يبدو عريس "لقطة" لأي فتاة. للحظة ظنت أنها تود أن توافق عليه، لكنها نظرت إلى الشاب أمامها وتأملته جيدًا، فشعرت بالأسف لأنها كانت تعلم أنه سيموت.

بعد إلحاح والديها وافقت أن تُعطي أوسم فرصة، لكنها عزمت في داخلها على إخباره بالحقيقة كلها.

في أول مقابلة لها مع أوسم، أخذها إلى مطعم فاخر. جلست أمامه في ارتباك، تكلم هو بينما ظلت هي صامتة، خجلة، تفكر في نفسها بالطريقة التي ستخبره بها بالحقيقة.

نظر إلى عينيها مباشرة وبصوت رقيق طلب منها أن تشاركه الحديث، فقد لاحظ أنها لا تعقب على ما يقول بل تكتفي بإيماءة بسيطة، وشعر أنها تحمل همًّا في قلبها. طلب منها أن تشاركه همّها ذاك.

أخذت نفسًا عميقًا ثم حاولت النظر إلى عينيه مباشرة وقالت:

_ هل تعلم أنه تمت خطبتي مرتين في السابق؟

_ بالطبع أعلم، فأنا سألت عنك جيدًا قبل أن آتي لخطبتك.

تسارعت ضربات قلبها ثم أخذت نفسًا عميقًا وواصلت:

_ وهل تعلم أيضًا أن كليهما ماتا قبل موعد الزفاف بفترة بسيطة؟

صمت برهة، ثم نظر إلى عينيها ورأى أنها توشك على البكاء. واصلت أمل قائلة:

_ خطيبي الأول كان فتى صغير السن بصحة جيدة، لكنه كان يُعاني السمنة المُفرطة. كان يخبرني أنه يحاول الالتزام بحمية غذائية كي ينقص وزنه، لكنه كان دائمًا لا يلتزم بها، وأنا لم أُصر عليه، فقد تقبّلته كما هو.

ثم نزلت من عينيها دمعة وقالت بصوت يرتجف:

_ كان مريض سُكر، لكنه لم يكن يعلم. ثم واصلت بكاءها: دمر السُكر أعضاء جسده حتى أصيب بفشل كلوي ومات قبل الزفاف بشهر واحد.

أخذت أمل تنتحب لكنها شعرت أنها أزاحت نصف الهم الذي تحمله في قلبها، ثم جففت دموعها وواصلت السرد:

_ أما الثاني فكان فتى رياضيًا محافظًا على لياقته، لم يُعانِ شيئًا، وكنت أحبه بشدة. قبل موعد الزفاف بأسبوعين فقط، أخبرني على الهاتف أنه مُجهد جدًا ويشعر بهبوط، ثم في اليوم التالي وُجد في منزله ميتًا إثر هبوط حاد في الدورة الدموية.

أخذت تنتحب وتبكي. كان أوسم يتأملها بهدوء، ثم شهقت وقالت له:

_ أنا فتاة نحس يا أوسم، كل رجل سيرتبط بي سيموت.

صمت أوسم هنيهة يبحث عن كلمات، ثم وضع راحته على ذقنها وقربها منه وقال:

_ لم أكن أعلم أنك فتاة حساسة إلى تلك الدرجة. أنتِ تحملين نفسك موت خاطبيكِ السابقين، هذا قدر لا دخل لكِ به. ثم إنك متعلمة ومهندسة، فكيف تعتقدين بخرافات مثل أنك نحس؟ أنا لا أصدق تلك الخرافات، ولا يجب أن تصدقيها أنتِ. اطرحي تلك الأوهام عنكِ بعيدًا.

حاول أوسم تهدئتها وقد نجح في ذلك إلى حد كبير، وتمت خطبتهما.

كان أوسم سعيدًا جدًا بخطوبته في البداية وشعر أنه وجد الإنسانة التي كان يبحث عنها طويلًا، لكنه وجد أن خطيبته شديدة القلق عليه.

في البداية كان يتفهم قلقها ويحاول طمأنتها بكل الطرق الممكنة، واعتقد أنه بعد فترة من الخطوبة ستهدأ هواجسها، لكن العكس حدث. كلما عرفها أكثر وتعلقت به أكثر زاد قلقها غير المبرر عليه.

فكانت تتصل به لتتأكد أنه غسل يديه قبل الأكل وبعده، وأنه أقلع عن التدخين وقلل من الوجبات السريعة ويمارس الرياضة بانتظام. كانت تسأله دائمًا أن يتأكد من عدم وجود تسريب غاز في البيت، وحددت له سرعة يقود بها سيارته ولا يتجاوزها.

أمام كل هذه التعليمات من أجل التحقق من سلامته، لم يكن أمام أوسم سوى اختيار واحد، بعد تفكير طويل وعميق: يبدو أن حالة أمل لا تتغير، وهو لا يستطيع، رغم كل مميزاتها، أن يحتمل هذا الوضع. فقرر أن يتركها.

ارتسمت علامات الصدمة على وجهها، غير قادرة على فهم المبررات التي ساقها أوسم لها. كان أبيها يقف مذهولًا مستمعًا إلى تبريرات أوسم غير المقنعة.

بدأت أمل تبكي وتنتحب أمام حديث أوسم:

_ أمل، حاولي تفهميني، أنتِ تعانين من حالة قلق غير طبيعية. حتى لو لم تكن حادثة موت الاثنين اللذين سبقوني لخطبتك، لكانت غيرها هي التي تدفعك لقلقك الدائم. وأنا لا أستطيع تحمّل هذه الحالة، أنتِ بحاجة إلى مساعدة متخصصة.

لم تُجب أمل، وظلت مطأطأة الرأس، ذارفة للدموع.

تحدث والدها قائلًا:

_ أعذرها يا بني، فالذي مرت به أمل ثقيل، لا يحتمله أحد. ربما ستتغير بعد الزواج، لأن خاطبيها توفيا قبل موعد زفافها بفترة بسيطة، لذا ربما قرب موعد زفافكم هو ما يثير مخاوفها القديمة، وستزول تلك الحالة عقب عقد قرانكما.

هز أوسم رأسه معترضًا وقال:

_ صدقني يا عمي، موضوع خطيبَيها اللذين توفيا قبل الزفاف ليس أكثر من حجة اخترعها عقلها ليُغذي قلقها فقط، ليس إلا. وإن لم تكن تلك الحادثة لكانت غيرها.

قطعت أمل حديثهما قائلة بصوت مبحوح من البكاء:

_ كنت دائمًا أخشى فقدانك، وها أنت الآن تجعلني أفقدك.

نظر أوسم إلى الأرض في خجل ثم خرجت الكلمات ثقيلة من فمه:

_ سامحيني يا أمل، أنتِ إنسانة رائعة صدقيني، لكنك فعلًا محتاجة إلى علاج متخصص.

_ ربما يكون خروجي من حياتك نعمة لك. ربما هذا ما سيجعلك تعيش، أن تبتعد عن فتاة نحس مثلي. لكنك لا تريد أن تجرحني وتخبرني أني نحس، فقررت أن تخترع حجة قلقي هذه. لا بأس، أنا أحبك، وإن كان خروجي من حياتك هو ما سيهبك الحياة... فاخرج منها.

زفر أوسم في ضيق محدثًا نفسه:

- **"لا فائدة، فهي ما زالت تصدق تخاريفها الخاصة."**

مرت أمل بحالة اكتئاب شديد بعد فسخ خطوبتها من أوسم، وقد رفضت موضوع الزواج رفضًا تامًا هذه المرة، ولم يتجرأ أحد على مفاتحتها في الزواج مرة أخرى.

ظلت تراقب أوسم من بعيد على مواقع التواصل الاجتماعي، حتى رأت يومًا خبر خطوبته من أخرى، وكان تقريبًا أحزن يوم في حياتها. لكنها حاولت أن تنساه نهائيًا هذه المرة وتقطع أي أمل في رجوعهما، وتركز في حياتها المهنية. لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من مراقبته على مواقع التواصل.

كان موعد عرسه يقترب، حتى فتحت في يوم صفحته على موقع "فيسبوك" وقرأت هذا الخبر مرارًا وتكرارًا:

- **"توفي أوسم قبل موعد زفافه بأيام قليلة إثر حادث سير."**

كاد عقلها يتوقف، وكادت تُجن.

لماذا توفي أوسم؟! كانت قد خرجت من حياته منذ فترة طويلة، بل وخطب أخرى. إذاً لماذا مات؟

هل ظلت لعنتها تلاحقه حتى مات أيضًا بعدما افترقا؟ أم أن القدر هو من فرّق بينهما حتى لا تشعر بالذنب للمرة الثالثة؟

لكن لماذا تشعر بالذنب من الأصل؟! هذا قضاء وقدر.

لماذا حملت نفسها ما لا طاقة لها به؟

شُفيت أمل في تلك اللحظة من فكرة أنها نحس يتسبب في خسارة من تحب، وشعرت أنها تحررت، ورحبت مرة أخرى بموضوع الزواج.

بعد فترة وافقت أمل على عريس كان متقدمًا لها، لكنه لم يكن يعرف ما حدث مع خاطبيها السابقين، وهي لم تخبره. حرص والدها على تقصير فترة الخطوبة، فلم تتجاوز شهرين، وتزوجت أمل، بل وأنجبت أيضًا ولدين، ولم يمُت منهم أحد.

لكن تحققت نبوءة أوسم، فقد كان موت خطابها مجرد حجة غذّى بها عقل أمل قلقها غير المبرر. والآن اخترع عقل أمل مزيدًا من الحجج والوساوس، فقد كانت شديدة القلق على زوجها وولديها، ومتوقعة دائمًا أن تحصل كارثة في أي وقت.

عاشت أمل، وعاش زوجها، وولدها، وعاش معهم أيضًا قلقها المرضي على أحبّائها.